الاتِّجاه الاجتماعي في الشعر القصصي عند خليل مطران والشاعر القروي

أ.د. شاكر محمود عبد السعدي
الباحثة هبة أحمد سالم
الجامعة العراقية / كلية الآداب

The social trend in fictional poetry by Khalil Mutran and the village poet

Prof. Shaker Mahmoud Abdel Saadi
Researcher Heba Ahmed Salem
Iraqi University / College of Arts

ملخص البحث

والشعر عند أُمة العرب سجلها الذي يَحمل ماضيها وحاضرها، وهو من مفاخرها الذي تَتَغنى به في نواديها، كما قال عنه النبي الكريم محمد (صلى الله عليه وسلم): "لا تدع العرب الشعر حتى تدع الإبل الحنين"[1]، ولعل من أطرف الدراسات الأدبية والنقدية وأمتعها تلك التي تحاول البحث عن الصلات الفنية بين الفنون الأدبية، التي تشترك في بعض الخصائص والصفات، مُؤصلة بذلك كل فن من هذه الفنون على حدّة، وأكثر الفنون الأدبية تشابهاً وتقارباً في الملامح والصفات الشعر والنثر، وهذا ما سنحاول البحث فيه من التداخل ما بين القصة والشعر، فالروح القصصية سمة بارزة، تتضح لمن يتأمل ديوانَيّ الشاعرين

Abstract

Poetry is described by Arabs as the record that embraces their history and present. It is the pride that is delivered in the events. It is worth noting that Prophet Mohammed (PBUH) said Arabs never leave poetry behind. Moreover, the most humorous and enjoyable literary and critical study is the one that aims to search for the artistic links in the literary arts that shares some features of every single art and the most similar arts in glances and features are poetry and prose. Furthermore, the study aims at highlighting the overlap between story and poetry because the story style is vivid in the collection of poems of both poets.

المقدمة

الحمدُ للهِ الَّذي بتوفيقه أستعين، ولعظمته أستكين، والصّلاةُ والسَّلامُ على رسوله الأمينِ، المبعوث رحمة للعالمين، سيدنا محمدٍ وعلى آلهِ وصحبه أجمعين، أما بعد:

فكانَ فضلٌ مِنَ اللهِ وتوفيقِهِ أنْ تهيَّأَت لي أسبابَ البحث في ميدان هذا الموضوع الذي يجمع بين القصة والشعر، فللقصة ارتباط وثيق بجوانب الحياة، وللعرب اهتمام كبير بالقصص، يُؤكد هذا القولَ القصصُ الكثيرة في القرآن الكريم، وهو الذي أُنزل بما يلائم أذواقهم واتجاهاتهم.

والشعر عند أُمة العرب سجلها الذي يَحمل ماضيها وحاضرها، وهو من مفاخرها الذي تَتَغنى به في نواديها، كما قال عنه النبي الكريم محمد (صلى الله عليه وسلم): "لا تدع العرب الشعر حتى تدع الإبل الحنين"[1]، ولعل من أطرف الدراسات الأدبية والنقدية وأمتعها تلك التي تحاول البحث عن الصلات الفنية بين الفنون الأدبية، التي تشترك في بعض الخصائص والصفات، مُؤصلة بذلك كل فن من هذه الفنون على حدّة، وأكثر الفنون الأدبية تشابهاً وتقارباً في الملامح والصفات الشعر والنثر، وهذا ما سنحاول البحث فيه من التداخل ما بين القصة والشعر، فالروح القصصية سمة بارزة، تتضح لمن يتأمل ديوانَيّ الشاعرين.

أمّا دراستي فجاءتْ بعقدِ موازنة بين شاعرينِ، أحدهما شاعر الأقطار العربية، والثاني شاعر العروبة، فكان اختياري لشاعر مَشرقي جاءت قصصه الشعرية مُتأثرةً بالبيئة العربية المحافظة –في المضمون والمفردات– حيث المَنبع الصافي، والأصالة والالتزام الديني والاخلاقي، وشاعر آخر مَهجري، فكانت قصصه متأثرة بالبيئة الغربية، حيث الجَوّ المُختلط المُتحرر من قيود المجتمع، فكان له تأثيره على أفكاره المُبعثرة من الناحية الأخلاقية، وحتى من الناحية الدينية، فجاءَتْ بعض قصصه الشعرية بما يُخالف العقيدة الإسلامية، وبعض الأفكار التي فيها تَجاوز على الذات الإلهية، لكن تَوجَّبَ عليَّ كباحثة ذِكر هذه القصص الشعرية مع التنبيه على ما هو مخالف منها لشريعتنا الإسلامية لسببين: أولهما هو عدم

وجود مثال آخر لذكره عند عقد الموازنة في الاتجاه للاجتماعي للقصائد القصصية بين الشاعرين، وثانيهما وأنا ادرس موضوعاً أدبياً هاماً لم يَكُن من الصحيح –فنياً– حَذف هذه الامثلة، وتَزْيّف الأدب العربي بقولنا لم يكن للقروي قصة شعرية عن الأم أو عن اتجاه آخر، فنحن كباحثين مُطالبين بنقد الشاعر أدبياً من حيث الإجادة أو الإخفاق، وليس عقائدياً، لكني مع ذلك اكتفيتُ بالإشارة لها دون ذكر نص القصيدة.

وطبيعة الدراسة تقتضي بأن يكون المنهج تكاملياً، يستشير كلاً فيما يخصه ويعنيه، فمثلاً استعمال المنهج الوصفي لوصف شعر الشاعرين، والتاريخي عند الحاجة لذكر أحداث عن حياتهما، والنفسي في ربط القصة بحالة الشاعر النفسية وتأثيرها، والفني في تحليل الأمثلة والشواهد... وهكذا.

وعلى الرغم من أن دراستي مُختَصّة بالقصص الشعرية وليست بالقصص النثرية، لكني لم أذكر ابيات القصائد كلها، واكتفيت بالمهم من الشاهد الشعري، والشاهد هو قصة طويلة مُتَضَمَّنة مقدمة ومجموعة من العُقدّ ونهاية، فكان لابُدّ من ذكر نصوص قصصية طويلة لكي تتضح معالم القصة، فلم أستطع حَذف الأحداث المهمة منها والاكتفاء بأبيات قليلة، كي لا يؤدي هذا الأمر إلى عدم اتضاح فَحْوَاها، وذكرتُ بقية الأبيات منثورة في معظم القصائد، بسبب كبر حجم القصائد ولا سيما قصائد خليل مطران القصصية.

الاتِّجاه الاجتماعي

في الشعر القصصي عند خليل مطران والشاعر القروي

لطالما كان الأدب صورة صادقة لمجتمعه، ولسان حال الأمة المُعبِّر عنها، أو هو بالأحرى مرآة هذا المجتمع الذي تنعكس على صفحتها أحوال هذا المجتمع من قوة أو ضعف، ومن تقدُّم أو تأخُّر، فَيكفي للقارِئ أن يأتي بأدب أمَّةٍ ليعرف قَدَر هذه الأمة وحظّها من التقدُّم أو التخلّف، وللأدب دور في حياتنا، فَيُمثل السِجل المقروء الذي يحتوي خِبرْات أُمَّتِنا، ولا نعرف أمَّة من الأمَم قد ظَفَرت بِمثل هذه الوثائق الأدبية (الشعرية والنثرية) التي عَبرَّتْ عن حياة أُمَّتنا، فتُعدُّ هذه الوثائق سجلات حَية للأجيال المتعاقبة، فضلاً عن دوره الكبير في بناء الإنسان والمجتمع، فَكمْ من كَبْوةٍ تعرضتْ لها الأمة إلا أن الأدب كان باعثاً لها، وناهضاً للعزائم، مُشجعاً على تَخَطّي هذه العقبات والزلّات[2].

ويُقسم الاتِّجاه الاجتماعي في القصص الشعرية على جوانب متعددة، أهمها:

المبحث الأول: قصص الأم

وفي هذا المجال يُسجل السبّق للشاعر القروي على نظيره المشرقي، وهذا لا يَعني انعدام ديوان الخليل من قصائد الأم، بل وجِدت أعذب الألحان في مناجاة الأم في قصائده[3]، غير أنها ليست بصورة قصصية، لكننا نجد عند الرشيد أبرع ما صاغ من قصائد قصصية مُتمثلة في هذا الجانب، وإن كان فيها بعض ما يُخالف عقيدة ديننا الإسلامي، وبعض الصفات التي فيها الجرأة على الله(تعالى)، لكنه نَسَجَ قصيدته بصورة دقيقة، وسردٍ مُشوِّق أخّاذ، وفكرة مُبتكرة، وهي قصيدة "حضن الأم"[4]، التي تدور حول عَظمة قيمة الأم في حياة البشر، وهي أُسطورة من نَسْج خيال الشاعر مُعَبّرةً عن عقيدة الدين المسيحي بألوهية عيسى(عليه السلام)، وإن مريم(عليها السلام)هي أُم الإله[5]. يبدأ القروي قصيدته القصصية بأسلوب استفهامي للتقرير والتشديد على فكرتهِ التي أرادها، لكننا لم نَذكرْ القصيدة؛ لكون

مضمونها مما يُخالف عقيدة ديننا الإسلامي، واكتفينا بالإشارة إليها، ولقد أحدثت هذه القصيدة ضَجّة في عالم الأدب حينما نُشرت، وتُرجِمت إلى لغات عديدة، لأنها تمثل العقيدة المسيحية من ناحية، ولأنها تُصوّر عاطفة الأُمومة الإنسانية من ناحية ثانية. والمُشوّق فيها حقاً أن الحدث ظل مُسايراً للقصة، مُتطوراً معها حتى آخرها .

القصة طويلة نسبياً في نحو ثلاثة وثلاثين بيتاً، وعلى البحر الوافر، عَبرَّتْ القصة أحسن تعبير عن العقيدة المسيحية، وقد وفِق الشاعر في اِبتداع هذه الاِسطورة مُستلهماً التراث الديني للتعبير عن فكرته.

بداية القصة ونهايتها مُفاجِئة مُتناقضة من حيث التصوير؛ حيث كانت الصورة: لإله (قاسياً يلتذُّ بالدم)، وصارت صورة لـ (صبيٍّ صغيرٍ نائم)؛ وحُضْن الام كان سبب هذا التَغيُّر، لكنها أيضاً صادمة من حيث تَجاوز الألفاظ بما لا يَليق بالذات الإلهية، وتَساهُله في ذِكرِ الإله والأنبياء، وقد تَمادى كثيراً وتَجاوز في رَسْم بعض الصور: (إله موسى قاسٍ ومُلتَذٌ بالدم، ليس واسع العلم، سريع الغضب، يكاد يندَّم لخلقه الشعراء، الإصرار على اكتشاف حضن الأُم ولو كلفه الشقاء والعدَّم!) فبهذا رسم له صورة بَشَرٍ وليس صورة إله.

المبحث الثاني: قصص الفقر

نالتْ صور الفُقْر ومُعاناته حُضوراً واسعاً في ديوانَي الشاعرين، ولاسيما ديوان الخليل، ومنها "الجنين الشهيد"، وهي قصة اجتماعية واقعيَّة، تَتَحدثُ عن الفقر وما جرَّ إليه من مُخالفة الدين والأعراف، جَرَتْ بِمصر وحَضَرَ مطران وقائعها، إذ يروي لنا قصة "ليلى" الفتاة الفقيرة الحَسناء، التي جاءتْ من الصعيد إلى القاهرة لتَستَعطي وتَتَسول لتعول والدِّيها، فَيُصوِّر الخليل شَقاءها وفُقْرها وذُلها في سبعة عشر مُخْمساً تصويراً دَقيقاً مُطولاً، ثم يَنْتقل لتَصوير جَمالها واكتمال أنوثتها بأبرع تَصوير بخمسة مُخمسات، فيقول في أبيات مطلعها[6]:

أتــتْ مصــرَ تسْــتعطي بأعيُنهــا وعَــرْض جمــالٍ لا يقــاس إلــى النجْــــــــــــــــــــــلِ مثــــــــــــــــــــــــــلِ

غريبــة هــذي الــدار بادِيَــة الــذلِّ جلــتْ طفلــةً عــن مــوطنٍ ناضــبٍ قحْــــــــــــــــــــــــــــل

إلــى حيــث يُــروي النيــلُ باســقة النخــلِ

فلاحيَّــة مــا درّهــا ثــديُ أمهــا ســوى حزنهــا البــادي عليهــا وهمّهــــــــــــــــــــــــــــا

ولــم تتنــاول مــن أبيهــا ســوى ومــا أحــرزت مــن أهلهــا غيــرَ اســــــــــــــــــــــــمها يتمهــــــــــــــــــــــــــا

وأشــقى اليتــامى فاقــدُ البــرِّ فــي الأهــل

فكانــت كنــامي الغَــرْس يزكــو ومطعَمُــه طــين ومَسْــقاه أكــدَرُ وينضــــــــــــــــــــــــــرُ

يُحـــيط بهـــا دَوْحـــان شـــيخٌ معمّـــر وأم عجـــوزُ القِشْـــر واللـــبُّ أخضـــر

تبيعهمــــــا قوتًـــــا بشـــــيء مـــــن الظـــــلِّ

فمِــــن صُــــبْحها تســــعى لجنْــــيٍ وفــي ليلهــا تقضــي الــذي يُبتغــى

ومُكتـــــــــــــــــــــــدَى غـــــــــــــــــــــــدا

كمـــا كـــان عبـــدُ الـــرقّ جُنحًـــا يواصـــل مسْـــعاه ليخـــدمَ ســـيِّدا

ومغتـــــــــــــــــــــــدى

وتَبدأ عُقْدة القصة: حين يُشاهد الأب نُضْجَ اِبنته واكتمالَ أنوثتِها وجَمالها، فَيَعرض على زوجتِه أن تَعمل "ليلى" في إحدى الحانات، ويرى في ذلك خيراً لها من سَعيها وتَعبِها، وسُؤالهم مُقابل الكَسب القليل، بل في هذه الطريق ما يُهيئ لهم جميعاً حياة أفضل، ويُبدل نِقْمَة عيشهم إلى مِنّةٍ، ويَرتَقون أوْج السَعدِ من مُرتقى سهلِ، فتقتنع الأُم، وتَتَودد لابنتها، واصفةً إياها بالدواء الوحيد لأعضل داء وهو الفقر، ويُخاطبها ضميرها ويُؤنبها، لكن سُرعان ما غَلَبَ جوع النفس على تأنيب الضَمير فَيصمت، والقى بفتاة في أول صِباها إلى حيث يَخشى حتى الناسك من الزلل والفتنة، و"ليلى" هي الفتاة التي تَعمل كل ما تُشير اليه أُمها لِتُرضِيهما وتعزَّهما، وبذلك ترى سعادتها، فتُكاشفها الأُم بما هُيأَ لها من عملٍ في إحدى الحانات.

وقـال أبوهـا يوم تمَّ شـــبـابهـا وحِيكَ لها من نور فجْرٍ إهابُها

أيـا أمّ ليلى حسْـــبُ ليلى عـذابهـا توَفر مســـعاها وقلَّ اكتســـابها

وأسْـــأم تـكـرارُ الســـؤال ذوي الـفضـــلِ

أراها أصـــحّ الآن جسْـــمـا وأجملا فحتّـامَ لا نجني جَنـاهـا المُؤملا

نمَـتْ ونموّ الفقر يـأتـي معجَّلا ولم أرَ في الإعسار كالحَانِ موئلا

لـمَنْ يطلبون الرزق من أقرب السُّـــبْـلِ

فقـالـت لهـا أمٌّ شـــديـدٌ دهـاؤهـا ســـخيٌّ مآقيها ســـريعٌ بكاؤها

بُنيَّـة هـذي الحـال أعْضـــلَ داؤهـا وأنـتِ لنـا دونَ الأنـامِ دواؤهـا

أغَـيـرَكِ نـرجـو لـلـمـعـونـة والـكـفْـل؟

فقـالـت أشـــيري يـا أميمـة إنني لفـاعلـة مـا شـــئتـهِ فـأمرنّني

ومـا تـؤثـريـهِ أحـتـرفـه وأتـقـنِ وكل الذي فيه رضـــاك يســـرّني

فـروحـكـمـا هـمّـي وعـزكـمـا شـــغـلـي

فقـالـت لهـا إنـا نرى لـكِ مهنـةً تُعيـدُ علينـا نقمـة العيش منَّـة

تـكـونـيـن فـيـهـا لـلـنـواظـر جنـة وللشـــاربين المســـتهامين فتنة

فَتَرْقَيْنَ أوْجَ السَّـــعْـد من مرتقىً سَـــهْـلِ

وفيما بعد يُصوِّر لنا الخليل كيف أَقبَلَ طُلّاب المُجون على "ليلى"، وَحَيَّوا فَحَيَّتهُمْ، وراحوا يَطلبون رِضّاها ويَتَغنون بِها ويَتغَزلون بها بأجمل الأوصاف، ولما بالغوا في مُداعبتهم إياها طَلبتْ منهم أن يَتّقوا الله؛ لأنها بَتول، لكنهم لم يُصدقوا ذلك، فَسخروا منها وضَحكوا من عَفافِها المُلفق، وكان أحد الرفاق قد اِستاء من تَصَرُّف رِفاقه وقد أزعجوا الفتاة واسمعوها كل كلام وَقح، فَهاجمهم ودَافع عنها، فلما أذهَبتْ الخمرة عقولهم وسكروا وسكرتْ، يُصوِّر

حالهم ذئاب يَتسابقون إلى اِفتراس نَعجةٍ وديعة، وهي تَتَدلل وتُعرِض عنهم فَتَزداد رغبتهم فيها، وتُتُقن ليلى صَنعتها، وتَغدو ماكرة لعوباً تَعلمت كيف تَصيد قلوب عُشاقها، فَتنهال عليها الأموال لتَنتَهي إلى أُمها التي تَبتَاع الحُلى وتَعيش في ترف ونَعيمْ:

وكـــان رفيـــقٌ مِـــنْهُمُ مُتألِّمَـــا يـــرى آسِـــفاً ذَاكَ الـــدِّعَابَ المُـــذَمَّمَا

وتِلـــك الفتـــاة البكـــر خلقًـــا مثلّمـــا وَعِرْضـــاً غـــدَا تثليمُـــهُ مُتَحَتّمَـــا

فقـــالَ((ارْبَـــأوا جـــاوزتمُ الحـــدَّ فـــي الهَـــزلِ

لَـــئنْ جَـــازَ مَـــسُّ البِكْـــرِ أوْ سَـــاغَ بَـــلا حَـــرَجٍ مـــا دَامَ يُـــؤْمَنُ ثَلْمُهَـــا لَثْمُهـــا

فَلِـمْ زهْـرَةُ الـرَّوْضِ الَّتـي هِـي رَسْـمُهَا إذَا ابْتُـذِلَتْ جَفَّـتْ ولـو صـينَ كمُّهَـا

ولـــم تســـتعِذْ زَهْـــواً وَطِيبـــاً مِـــنَ الطَّـــلِّ؟))

أيَـــا لَيـــلُ هـــلْ تَصـــفُو وَتَطْلُـــعُ لتُقْـــذَى بأرْجَـــاسِ الـــوَرَى أعْـــيُنُ أنجمـــــــــــــــــــــــــــــــاً السَّـــــــــــــــــــــــــــــــما

وَيَـــا زَمنـــاً قـــالوا بـــه الـــرق حرمـــا عـــلام أبـــيح الطفـــل للجـــوع والظمـــــــــــــــــــــــــــــــا

فباعـــــاه للفحشـــــاء تحـــــت يـــــد العـــــدل؟

ويُصوِّر كيف نَمَا حُسن ليلى وجمالها، لكنه الحُسن المُلوث الذي يُخفي الرّذائل والدنس:

على هذه الحالِ الشـــديدِ نَكيرُهَا نَمَا الحُسْنُ في((لَيْلَى))وَمَاتَ ضَميرُهَا

فجِسْـــمٌ كَمِشْـــكَاةٍ يَعزُّ نَظِيرُهَا بِإتْقَانِهَا لكنْ خَبَا الدهرُ نورها

وعينٌ كَحَالِي الغِمْد أمسَـــى بِلا نَصْـــلِ

فَلَمَا اسْتَوَى شَكْلاً رَبيعُ الصِّبا بها وَشَـــبَّ عَنِ الأكْمام زَهْرُ شَـــبَابِهَا

وَدَلَّ عَلَى النَّعمَاءِ غَضُّ إهَابِهَا وأنْكَرَ زَهواً ما مَضَـــى مِنْ عَذَابِها

حَكَتْ جَنَّةً فيهَا مُنَى القَلبِ والعَقلِ

وَمَا هي إلا دِمْنَةٌ لكنِ اكْتَسَـــى ثَرَاهَا من النَّبتِ المُزوّرِ مَلبَســـاً

وَيَسْـــطَعُ منها الطِّيبُ لَكنْ مُدنَّســـاً وَفي نَورِهَا تَنْمُو الرَّذائلُ والأسَـــى

وَمَوْرِدُهَا عَذْب عَلَى أَنَّهُ يُصْـــلي

ثم يرسُم لنا كيف تتبدل حَال ليلى تلك التي كانت الفتاة الفقيرة البريئة، ويَعجب أشد العجب من الحَال التي اِنقلبت إليها، ومنها قوله:

نعَمْ هيَ ليلى لكنِ الآنَ تكذبُ ويكذبُ منها الحاجبُ المتحَدِّبُ

ويكذب فيها قلبُها المتقلّبُ ويكذب من بُعْدٍ شذاها المطيَّب

على غيرِ ما ظنّتْ بها الناسُ من قبْلِ

وتكذب في ميلادها وولائها وتكذب في ميعادها ورجائها

وَزُرْقَةِ عَيْنَيْهَا وَبَردِ صَفَائِهَا وَحُمْرَةِ خَدَّيْهَا وَوَرْدِ حَيَائِهَا

وليلى لم تَكنْ راضية عن واقعِها، وتُأمِل نفسها بأنها سَتفك أَسرها وتُعلِّي قَدرها إلى أبعد ما يكون، فَيأتى الفتى "جميل" الجَميل، الطَلِقُ المُحيا، وقد هامَ عِشقاً بها، وحاكَ لها حبائل الغش والخِداع بالزواج منها، فبَادلته الهُيام، وتَركتْ رفاقها، وعند عِتابها على إعراضها

عنهم إلى من هو أجدَر بالصدِّ والرذْل، لا تُصدق نُصحهم وتَخالهم يهجونه لمأربٍ، فلا ترى سواه بين الحضور:

وكــان فتــىً طلْــقُ المحيَّــا جميلُــهُ ولكنَّــهُ نــذْلُ الفــؤادِ ذليلــهُ

يميــلُ إليهــا وهــي لا تسْــتميلهُ فيــزداد فيــهِ غيظــه وغليلــهُ

وقــد طوِيَــتْ أحشــاؤهُ طيَّــةَ الصِّــلِّ

وكــان كثيــرا مــا يَــوَدُّ خِطابَهَــا فتصــغي إليــه وهــي تْحُســو شــرَابَها

فــإن مــلأتْ ممــا يقــولُ وِطابَهــا تولَّــتْ، وكــان الصَّــدُّ عنــهُ جوابَهــا

فــآبَ وفــي آماقــهِ أدمــعٌ تغلــي

وظــلّ يــوافي فــي المواعيــد زائــرا فيَحْســوا الطِّلــى جمــرًا ويــرْوي النــواظرا

يُخالسُــها نيَّاتهــا والســرائرا لطيفًــا لمــا يبغــي علــى الــذلِّ صــابرا

فخُــورًا برَحْــبِ الصــدرِ والكفْــلِ والخــدْلِ

فــآلى لهــا يومــا بــأن يتــأهّلا بهــا، فأصــابَ الوعــدُ منهــا المــؤمَّلا

فقالــت كفــاني خدمــةً وتبــتُّلا وذي نعمــة أرقــى بهــا ســلّمَ العُــلا

ومــاذا تُرَجِّــي بعــدَها امــرأةٌ مثلــي؟

فأبْـــدتْ لـــه الإقبـــالَ بعـــدَ التبـــرّمِ ولكــن أطالــت خُبْـرَهُ خــوفَ مَنــدَمِ

فقالـــت لهـــا الــنفسُ الطمـــوعُ((إلى تظــلان فـــي مُشْــقٍ مــن الريـــب كَـــــــــــــــــــــــــمِ مـــــــــــــــــــــــــؤلم

ويقضـــى نفـــيسُ العمـــر فـــي الوعـــد والمطْــل؟

فَلـــــــــــــمْ أرَ أغـــــــــــوَى فُـــؤاداً، ولا وجهـــاً أحـــب وأبْـــدعَا من((جميلٍ))وأطْوعَـــــــــــــــــــــــا

فتـــىً لـــكِ يُهـــدِي قَلبَـــهُ واسْـــمهُ مَعَـــا فـــإنْ طـــالَ هـــذا المطْـــلُ منْـــكِ تَطلَّعَــــــــــــــــــــــــــــــــا

إلـــــى امــــرأةٍ تَسْـــــمُوكِ بالجَــــاهِ والأُصْــــل))

فخـــامَرَ ليلـــى الخـــوف ثـــم تحـــوّلا إلـــى غِيـــرةٍ والغيـــرةُ انقلبَـــتْ إلـــى غـــرامٍ فمـــا تلـــوي علـــى أحَـــدٍ ولا تكاشـــف بالحـــب النزيـــه مـــؤملا

ســـــوى ذلــــك الغِـــرّ الجميــــل مــــن الكــــلِّ

أَصَــــمَّ الهـــوى ليلـــى وأعمـــى رَدَّ عليهـــا كيـــدَها ودهاءَ هــــا ذكاءَ هـــــــــــــــــــــــــــــــا

فمِـــنْ نفسِـــها نالـــتْ وَشِـــيكًا ومُشـــقِي الـــورى منهـــا أنَـــمَّ جزاء هـــــــــــــــــــــا شــــــــــــــــــــقاء ها

بـــأنْ أخـــذَتْ فـــي فخّهـــا بيَـــدَي وَغْـــلِ

وبعدها يُمثل أمامها بطولاتِه، فوجدت فيه خيْر نَصير ومُدافع عنها:

وكـان من الجلاس أشْـيَـبَ مُغْرَمُ تَصَـبَّتْـهُ عشـقًا وهْوَ قدْ كادَ يَهْرمُ

فقـال إلى كمْ نحنُ تُعْطي وتَنْعمُ ليَحْظى بهـا قومٌ سـوانـا وينعموا

وشـرُّ جنـونٍ سَـوْرةُ الفسْـقِ فـي الكـهْـل

دَعـاهـا فجـاءتـه تجيـبُ تَلَمُّظـا فـأنْحَى عليـهـا بـالمَلامِ وغلَّظـا

إلى أن جَرَتْ منها الشّـؤونُ تغيُّظا فَثَـارَ جميـلٌ يقـذفُ السـمَّ واللظى

عـلـيـه بـمـدْرارٍ مـن السـبِّ مُـنْـهَـلِّ

وبـارَزَهُ حتـى الـتراب تـخضَّـبـا ففـاز على الشـيخ الفتى متغلِّبـا

وأشـبـعَـهُ ذُلاً لـكـي يـتـأدّبـا وعلّمـهُ أينَ التّصـابِي منَ الصّـبـا

وأقـنـعَـهُ بـالـلـكْـمِ والـلـطـمِ والـرّكْـلِ

فلمـا رأتْ منـه الحميَّـة سُـرَّتِ وفُرّجَ عنـهـا غيْمُ حزنٍ وَحسْـرةِ

بـلِ انكشـفت غمَّاؤُهُ عن مسَـرَّةِ ونادتْ((جميلاً)): يا ملاذي ونصْـرتي

تُـفـدّيـكَ نـفسـي مـن شـجـاعٍ ومـن خِـلِّ

ويَستغِل "جميل" حُبَّها له ويَغتَنِمْ الفرصة ويجرَّها إلى الرذيلة بعد أن أطال في إغرائِها بالوعود لما تَروَّعتْ وتَمنَعتْ وصَدَّته، فأقسمَ لها أنه من الغدِ سيكون بَعلاً لها فَيرفعُ شَأنها ويُعيل أهلها، وتَسقط ليلى وتَحمل منه ويَجفوها الناس، و"جميل" يَسلبها ما كانت قد ادخرتْ من مال فيشارك فيه والديّها والأخوة الذين تَعولهم(أكلاً، ومأوىً، وكسوة)، وهي تُحرَم طيِّبَ النوم والأكل، وهي تعطيه مخافة أن يَتحول عنها وهو يُنفق ما تُعطيه في البذخ والترف، يسيء لها وتَغفر لهُ، وتَقبل منه المُرّ، وتسوء حالها كثيراً وتَمرض، ويَنصرف عنها إلى غير لقاء، ويتركها حاملاً مريضة جفاها أهلها وابتعد عنها الناس، فُيصوِّر حالها قائلاً:

فلمَّـــا قضَـــتْ مـــن عـــدَّةِ الحمْـــلِ أشـــــــــــــــــــــــهُرا شـــكَتْ ألَمـــاً يسْـــتنْفِدُ الصـــبْرَ منْكَـــــــــــــــــــــــرا

وكانــت علــى المــألوف تشــربُ مُسْكرا وتَتْعــب حتــى يطلــعَ الفجــرُ مُسْــفِرا

فَتمَضِـــــي بجسْـــــمٍ خـــــائرَ العـــــزْمِ معْتَـــــلِّ

فقالـــــت لمـــــن تهـــــوى: أرانـــــي ضـــــــــــــــــــــــئيلة فّـــإن تفنـــي مـــالي يكـــن لـــي وســـــــــــــــــــــــيلة

لأشـــفى، وإلاَّ مُـــتُّ حُبلـــى عليلـــة فَفَرَّحهـــا بالوعْـــدِ إفكـــاً وَحِيلـــة

وَفَـــرَّ فـــرارَ اللّـــصَّ مِـــنْ حـــوْزَةِ العَـــدْلِ

وطـــالَ عليهـــا يومُهـــا فـــي التَّوَقُّـــــــــــــــــــــــعِ ومـــرَّ زمـــانٌ بعـــدَهُ فـــي التوَجُّـــعِ

فتفقد كل ما كانت تَملكه حتى الخاتم، وتَندَم ليلى أشد الندم، وتَنصرف إلى طلب المغفرة وتضرّع إلى الله بأسلوب النداء للاِستغاثة، فَتسأله أن يترفق بجنينها الذي جَنَت عليه، ثم تُصمم على قتل الطفل، فلماذا يَحيا وليس لهُ أبٌ أَتتركه يحيا للذّل والفقر؟ كما عاشتْ هيَ واِنتهت بها الطريق إلى حيث اِنتهت، ويَصف الخليل الصراع الداخلي في ضمير ليلى، فهو ولَدها وفلذّة كبدها، أتُبقيه للذّل والعار طوال حياته؟ أم تَقتله وتَرتكب إثماً فتُريحه من حياة ليس فيها غير الشقاء؟ و يَستمر الصراع وتقتله آخر الأمر، بعد أن يَستفيق ضميرها وتَعترف بأنها شريكة في الجريمة وتُخاطب طفلها وهي في أشد حالات الألم، وتطلب منه

أن يسأل الله المغفرة لأُمه وإنها ضحية مثله، وأن يُعذب أباه لما جَنّاه، منها قوله:

أضـــاعَتْ بـــهِ مِمَّـــا تقاســـيهِ رُشـــدَها وَعانَـــتْ مـــن الأوْصَـــاب فيـــهِ أشـــدَّها

يغالِـــبُ آنـــاً وجْـــدُها فيـــهِ حِقـــدَها ويغلـــبُ آنـــاً حِقْـــدُها فِيـــهِ وَجـــدَهَا

وَتَصـــــــرُخُ مـــــــن فـــــــرْط التـــــــألّم والإزْلِ

((أيـــا رَبِّ إنـــي حامـــلٌ ثـــمَّ مُرْضـــعُ ومـــالي مـــن القـــوتِ الضـــروريّ مُشْـــــــــــــــــــــــــــــــــــــــبع

أبـــي مُوسِـــعِي ذمَّـــا وأمّـــي تُقـــرّعُ وأشـــعُرُ أن ابْنِـــي بجَـــوْفي مُوجَـــعُ

فهـــلْ هـــوَ جـــانٍ أمْ يُعـــذَّبُ مـــن أجْلـــي؟

لَقَـــدْ بعْـــتُ كـــل المُقَتَنـــى ورهَنتُـــهُ وأنْفَقْـــتُ حتَّـــى خَاتِمـــاً مِنـــهُ صُـــنْتهُ

هُـــو العَهْـــدُ مِـــنْ ذَاكَ الخَـــؤون ضَـــنَنْتُ بِـــهِ مِـــنْ حيْـــثُ كُنـــتُ ظَنَنْتُـــهُ اؤُتمنتُـــــــــــــــــــــــــــــــــــــــهُ

لِعوْدَتِـــــــهِ فَـــــــألاً فَـــــــزَالَ بِـــــــهِ فَـــــــأْلِي

إلَهِـــيَ قَـــد يَجنِـــي مَـــلاكٌ تَحَســـرا وَيُخْطِـــئُ عـــانٍ إنْ خَطَـــا فَتَعثَّـــرا

ويـــأْتِي وَليـــدٌ إنْ تَبَسَّـــمَ مُنكَـــرا ولَكـــنْ جنِـــينٌ لا يفُـــوهُ ولَا يـــرى

أفـــي العـــدْلِ أن يُجْـــزى برِيئـــاً بَـــذنْبٍ لِـــي؟

ويَنقل الخليل الصراع النفسي المُتمثل بحوار ليلى مع نفسها، بَعدها ينتقل لوصف حوار خارجي ما بين ليلى وجنينها حين تُخاطبه قائلة:

أتغنيكَ من مهْدٍ بقيَّةُ أضْلعي؟ وَيُغْنيكَ من شَدْوٍ نَواحُ تَفَجُّعي؟

وهل تَتَغذَّى من فُؤادٍ مُقطَّع؟ وتَشْرَبُ مَاءً من سواكِبِ أدْمُعِي؟

وهلْ تَتَردى العارَ للسثْرِ يا نَجْلِي؟

فَيا وَلَدي المِسْكين فلذة مهجتي ويا نعمة عُوقِبتُ فيها بنقمة

ومن كنت أرجوه لسعدي وكان يُناجيه ضميري بِمُنيتِي

وبهجتي

وآمل أن يحيا ويرجع لي بعلي

تموتُ ولمَّا تسْتهِلَّ مبشّرا تموتُ ولمْ أنظرْ محيَّاك مُسْفرا

تفارقُ قبرًا فيه عُذِّبتَ أشهُرا إلى جَدَثٍ منه أبرّ وأطهرا

وتحيا صِغَارُ الطير دونَكَ والنخْلِ

تموت وما سلمت حتى تودعا وأمك تسقيك السموم لتصرعا

وتنفيك من جوفٍ به كنت لتخلص من عيشٍ ثقيل بما

مودعا وعى

من الحزن وآلالام والفقرِ والذُّلّ

فإنْ تلْقَ وجهَ الله في عالم فقُلْ ربّيَ اغفرْ ذنبَ أمّيَ مُحْسِنا

السَّنى

ثم يَصف الخليل ليلى حينما تَتراجع عن كلامها وتَطلب عفو اِبنها وتقرُّ بأنها هي المُذنبة بسبب ارتكابها الخطيئة وتَستحق جزاء القتل لما قتلت ولِيدها، فيقول على لسانها بضمير المتكلم:

كفـــرت بحبـــي فـــي اشـــتداد فعفـوك يـا ابنـي مـا أبـوك بمـذنب تغضـــــــــــــــــــــــــبي

فقـــل: رَب أمـــي أهلكتنـــي لا أبـــي وأمـــي زنـــت حتـــى جنـــت مـــا جنتـــه بـــــــــــــــــــــــــــــي

فزدهـــــا شـــــقاءً واجزهـــــا القتـــــل بالقتـــــل

***

رأتْ شـــــهُبُ الظلمـــــاء مشـــــهدَ وقـــد أسْـــقَطتْ منهـــا الجنـــينَ ظلمِهـــــــــــــــــــــــا بسُـــــــــــــــــــــــــمِّها

ثم يأتي الخليل بخاتمة لقصته على أغرب ما يكون، فليلى التي نَدمتْ وتَابتْ تعود بعد عامٍ لتسلو هي وجميل، وقد نسيتْ ما عاشته وما اِقترفته:

علـــــى أن((ليلى))بعـــــدَ عـــــامٍ سَـــلَتْ وسَـــلا المُغْـــري لهـــا مـــا تصـــــــــــــــــــــــرَّما تقـــــــــــــــــــــــــدَّما

ويسرد لنا كيف تبدلتْ توبتها بقوله:

إذَا التَقَيَـــا بـــاللحظ يَوْمـــاً تَبَسَّـــمَا لِـــذِكْرَى شَـــهيدَيْنِ: البَكَـــارةِ والطِّفْـــلِ

القصة طويلة جداً في مئة وخمسة عشر مُخمساً، على البحر الطويل، بدأها الشاعر بمقدمة بسيطة لم يكنْ من المُتوقع أن تَتطور أحداثها هكذا، فيُقدِّم دفقات سرديّة في هيئة

لوحاتٍ تعتمد خمسة أشطرٍ شعرية، تَتفق كل لوحة فيها بقافية موحدة ما عدا الشطر الأخير الذي يتبع قافية واحدة في جميع اللوحات، فيجعل القصيدة وحدة واحدة مُتماسكة، فيشابك المُخمسات بعضها ببعض فضلاً عن دوره الإيقاعي، ويَتدرج في وصف أوضاع الفقر، إلى أن يَصل إلى العُقدة بطلب الأب أن تَعمل ليلى في الحانات، ثم تَتدرج إلى عقدة أخرى بِمجون الشباب ومحاولتهم إغوائها، وتَصل بعد ذلك العقدة لمرحلة صعبة عندما تَستبيح ليلى عِرضْها وتَحمل، ويَتركها الجاني لِيهْرب بعد الوعود التي قطعها وتَبقى ليلى وَحدها لتُعاني مع المرض ومع جَنينها، ولكن تُفجر ليلى العقدة بقتلها الجنين ليكون الشهيد الثاني بعد اقترافها جُرم قتل الشهيد الأول، وتَمضي ليلى بعد ذلك مُتناسية ما فعلتْ لتُكمل حياتها، وهذا بلا ريب يَكشف عن براعة الشاعر في السبك وأصالته فقد ظل يُماطل القارئ ويشوقه حتى النهاية، ثُم فاجأه بهذه النتيجة غير المتوقعة.

إن مطران صاغ قصته؛ لتندِّد بالرذيلة وبالمجتمع الفاسد الظالم وتَبصرة للضالين، وعبرة للمُتّعظين، فاستمدَّ حوادثها من واقع الحياة وصَميم المجتمع، وأضاف إليها من خياله ما أضفى عليها فنه وحذقه. والغرض من القصة، وإن كان واضحاً في تصوير الرذيلة وتَفشّيها في المجتمع الفاسد، لكن الشاعر يَرمي إلى أبعد من ذلك، إذ ينفذ إلى السبب الرئيس لكل هذا، ويَستهدف إبراز فكرة أن الجوع والفاقة هُما أُم الخبائث[7].

ونلاحظ أن القصيدة يَندر وجود مثلها في الشعر العربي قديمه وحديثه، وتكاد تحوي مميزات شعر مطران جميعها. فالخيال والعاطفة والتصوير وحسن السبك ووحدة القصيدة جميعها نجدها فيها[8]، فما إن انتشرت القصيدة حتى ثارت حولها الأقلام، ووصفها بعضهم بـ "إلياذة الشعر الحاضرة ومُعلقة النهضة الشعرية"، ورأى بعض آخر "أنها فتح جديد في عالم الشعر العربي"[9].

والأُدباء يَختلفون في طريقة أدائِهم للخدمة الاجتماعية، فَمنهم من يَعتقد بأن في مجرد التصوير والوصف ما يكفي لأداء هذه الرسالة دون الحاجة إلى الإفصاح عن مشاعر الكاتب الخاصة أو الدعوة إلى علاج بعينه، ويرى فريق آخر أنه لابُدَّ من الدعوة الصريحة إلى المبادئ التي يُريد أن يُرَوج لها[10]، وإن شاعرنا من النوع الثاني، إذ يُلاحظ في قصيدته هذه وفي قصائده الاخرى أيضاً أنه يَتَدَخل في مسار القراءة مُعرباً عن رأيه، أو ناصحاً أو مُحذراً بأسلوب الإستفهام الإنكاري، فيَرمي إلى هدف أخلاقي تَهذيبي، فنجده يَتدَخل في أحداث القصة مُخاطباً الزمان مُعاتباً إياه على إباحته الجوع والظمأ اللَّذَيْنِ يَبيعان الطفل للفحشاء، وأيضاً هجومه على ليلى لما تبدّل بها الحال من فتاة حَيِيَّة إلى فتاة باعتْ عِرضها مُقابل وعود كاذبة، فيقول:

أَفِي لَحْظَةٍ تَغْدو المَصُونَةُ مُومِسا وَتُضْحِي عَرُوسُ البَغْيِ إِكْلِيلُهَا الأَسَى

وَمَرْقَدُهَا بَعْضُ الحِجَارَةِ والرَّمْلِ

فَمَا الكَوْكَبُ الدُّرِّيُّ زَلَّ وَأَعْتَمَا وَلاَ المَلَكُ الهَاوِي طَرِيداً ومِنَ السَّمَا

بِأَعْجَلَ مِنْ لَيْلَى سُقُوطاً وَأَعْظَمَا فَلَوْ رَضِيَتْ بِالمَوْتِ بَعْلاً وَإِنَّمَا

أَتَرْضَى بِهِ بَعْلاً سِوَى امْرَأَة أَهْلِ

وتَدخُّلاتْ كثيرة غيرها في مَعرض سرده للقصة.

والقصيدة كلها تَتَصِف بالميلودرامية[11] الرومنسية التي تَستَدر ما في النفس، وتُثير بالمشاهد المُحزنة وابداء المظالم التي تصيب الفقير والمستضعف في عالم الذئاب المفترسة التي خبا فيها نور الضمير[12].

وللخليل قصص اجتماعية أُخرى عن الفقر، منها "الوردة والزنبقة"[13]، تحكي حكاية فتاة أُبعد عنها أليف صِباها، لأن أهله أغنياء، وأبَوا تَزويجه من فتاةٍ فقيرة، ويَمزج الخليل حكايته

القصصية هنا مع الطبيعة، فهو عُرف شاعراً للخيال الرومانسي، وكذلك قصيدة "الطفلان"[14]،

التي يشير الخليل إليها أنها "منولوج شعبي"[15].

أما الشاعر القروي فله قصيدة بعنوان "الشيخ المنتحر"، وهي مأساة من مآسي الفقر، يَرسم القروي فيها مَشهداً مُؤلماً من مشاهد الحياة، باعثاً على الحزن والثورة في النفس البشرية، فيروي لنا قصة شيخ أصابه الداء فَحَوَّله إلى شبحٍ يَنهش فيه الجوع والمرض، ونَبذّه الناس وكأنه لم يكن بينهم، فيمضغ رِّيقه لشدة عطشه، حتى كأن وجوده في الحياة وبقاءه بينهم نعمة منهم وإحسان، ولم يَخَفْ أحد منهم الله فيه، مُتناسين ما أمرهم به في القرآن والإنجيل، وكان حَوله صبية، عِيال عليه، جِياع مأكلهم هو الشقاء والحزن، يُعللهم بالحصى حتى يناموا، فغمضت أجفانهم ولم تغمض بطونهم؛ فالجوع بقي يقظان يُعاني، وفي إحدى الليالي اشتد الجوع بالشيخ المسكين، وصاحَ من ألم الجوع، وحارَ في أمره، ولما بَلَغ به اليأس مبلغه مدَّ يده إلى حبلٍ وطَوَّق به رقبته ونادى رَبَه لكي يُسلم له الأمانة فليس لِمثلِه راحة في العيش، فكان ذلك الصوت قد هزَّ عرش السماء، لكن لم يَصل آذان من حوله من البشر! يقول في مطلعها[16]:

نَبـــذوه كأنـــه مـــا كانـــا يَمضـــغُ الريـــق طاويـــاً ظمآنـــا
نـــازعوه البقـــا فلـــو ظـــلَّ حيـــا عُـــدَّ هـــذا مـــن فضـــلهم إحســـانا
واِســـتهانوا بـــاللهِ بـــلْ أنكـــروا اللهَ وداســـوا الإنجيـــلَ والقرآنـــا
أســـبلَ الليـــلُ سِـــترَه واســـتكنَّ الطَّيـــرُ والنَّـــومُ صـــافحَ الأجفانـــا
شـــبحٌ زَادَهُ الظَّـــلامُ خَفـــاءً وهـــو لـــو عـــانقَ الضُّـــحى مـــا بانـــا
نهـــشَ الـــدَّاءُ فضـــلةَ الـــداءِ منـــه وأتـــى الجـــوعُ يَشـــحذُ الأَســـنانا
حولـــه صِـــبيةٌ عِيـــالٌ عليـــه يـــأكلون الشـــقاءَ والأحزانـــا
عُلِّلـــوا بالحَصـــى طـــويلاً فَنَـــامُوا إنمـــا الجـــوعُ لـــم يـــزلْ يقظانـــا
صـــاحَ ذاكَ المســـكينُ مِـــنْ ألـــمِ وأمســـى فـــي أمـــرِهِ حَيْرَانـــا
الجـــــــــــــــــــــــــــوعِ
هـــا يـــداه قـــد شَـــدَّتا الحبـــلِ حـــولَ العنـــقِ يأســـا والمـــوتُ فـــي اليـــأس هانـــــــــــــــــــــــــــا
لـــم يمـــسَّ الآذانَ فـــي الأرض هـــزَّ عـــرشَ الســـما وشـــقَّ العنانـــا: صـــــــــــــــــــــــــــوتٌ

قدَّم لنا الشاعر هذه القصة التي هي صيحة لإيقاظ ولاة الأمور والأغنياء ودعاة الإصلاح والإيمان بأسلوب التهكم والسخرية ليلتفتوا لحال المساكين، فكانت القصة الشعرية مُسخَّرة لهدف اجتماعي نبيل، والقصيدة ليست بالطويلة فهي أقل من خمسة واربعين بيتاً، وأبياتها الأخيرة خَرجتْ عن مسار الأحداث وتَسلسل العُقد، بل ذهبتْ نحو التحريض والسخرية والتهديد لعبدة الدينار الذين نَسَوا الضعفاء من الفقراء، والقصيدة على البحر الخفيف؛ لكون هذا البحر أخف البحور على الطبع، وأطلاها على السمع، وهو يصلح لموضوعات الجدّ،

والنظم فيه يَقرب من النثر[17]، (والقصة في أصلها ذات أصل نثري)، وكَتَب قصته بقافية نونية؛ نظراً لخفة صوت النون وجمال جَرْسه، فكان همّه إيصال قضيته الإنسانية إلى المجتمع بيُسر وسهولة .

بدأ القروي قصته بسيطرة الوصف على مجريات الأحداث، وبعد أن وَصَف حال الشيخ المريض المسكين ووصف عياله اِنتقل بنا فجأة إلى العُقدة بإنتحار الشيخ، من دون أن يسرد لنا الأحداث والعُقد الثانوية التي أوصلته إلى هذا الحال.

و القروي شأن الخليل لا يكتفي بنقل القصة ليُحقق الهدف الوعظي الرامي إليه، بل يَتَدخل في سرد حكايته بقوة مُستعيناً بأسلوب النداء للتعجب، وأسلوب التمني بـ "ليت"؛ لاستحالة وصول نِدائه إلى من يَدّعون الصلاح والإيمان، ومنها قوله:

يـا دُعـاةَ الاصـلاحِ فينـا ويـا مَـنْ يـــدَّعونَ الصَّـــلاحَ والإيمانـــا
ليـــت شـــعري هـــل ذاب فـــيكم كـــلُ قلـــب مـــا ذاب فـــيكم حنانـــا
حيـــــــــــــــــــــاءً
يـــا ولاةَ الأمـــرِ الفخـــامَ ويـــا مـــن عَبَـــدوا الحـــقَ أصـــفراً رنَّانـــا!!
خَبِّرونـــا لأَيكـــم نرفـــعُ الأمـــرَ وقـــد بـــات كُلُّكُـــمْ ســـلطانا؟!
مَعْشـــرَ الأغنيـــاءِ إن تحبســـوا الأمـــوالَ عنـــا هـــل تحبســـون
الزمانـــــــــــــــــــــا.

المبحث الثالث: نقد الأعراف الاِجتماعية وبعض الطقوس الدينية

تناول الشاعران هذا النوع من القصص في قصائدهما، فللخليل قصيدة بعنوان "الطفل الطاهر والحق الظاهر"، وهي قصيدة قصصية تروي لنا قصة فتى أديب عاقل في مصر، وفيها ثارَ مطران على رجال الدين وعلى قيود الزواج المسيحي، فيُهاجم رجال الدين، وتَشْتَد حملته على أحدهم حين أبطلَ زواج هذا الفتى من زوجته، لأنهما مُختلفان في مذهبهما المسيحي[18]، وإبطال هذا الزواج سيُلحق بولدِهما البريء العار فيكون ضَحيَّة هذا التَعنّت الذي سيؤدي إلى عدم شَرعيته، وبَعْدَها ثَبَت صحة هذا العقد ورُزق الرجل بطفل كالقمر فيقول في مطلعها[19]:

لـــكَ يَـــا وَليـــدُ تَحِيـــةُ الأحـــرارِ كتحِيَّـــــة الجَنَّـــــاتِ والأطيـــــارِ

تُهـــــدي إلـــــى سَـــــحَرٍ مـــــنَ الأسْـــــحَارِ

أقْبَلْـــتَ، وَجْهُـــكَ بالطَّهَـــارة أبْلَـــجُ وَالوَقْـــتُ طلْـــقٌ، والرَّبيـــعُ مُـــدَبَّجُ

وَالشـــــمس ســـــاكبةٌ ســـــيولَ نُضـــــارِ

آيـــاتُ حُســـنٍ لـــمْ يَكُـــنْ مَظَـــاهِرَا للسَّـــعْد فيـــكَ وَلا ضُـــرِبْنَ بَشَـــائِرا

لَكـــــــنَّهُن عَرَضْـــــــن فـــــــي التَّيْسَـــــــارِ

لَـــوْ كـــانَ بيْـــتُ إمـــارةٍ لـــك مَنْبِتَـــا لأَجَلَّـــتِ الـــدُّنْيَا وِلادَكَ مـــن فتـــى

وَسَـــــرَى بشـــــيرُ البـــــرقِ فـــــي الأمصـــــارِ

وَلَقـــال راجٍ أنْ يُثَـــابَ بمَـــا افْتَـــرى: تِلـــكَ العلائِـــمُ فـــي الســـماءِ وفـــي الثَّـــرى

ثم يواصل الخليل ذكر المزيد من التفاصيل السردية، فيقول:

سَـنَّ العفـاف كمـا ارتـآه فضـيلةً وَدَعَـا الخـلافَ نقِيصـةً وَرَذيلـةَ
فيمَـا اقْتضـاهُ خُلْـقُ الاسْـتئْثار
نـاطَ الـزواجَ بِصِـيغة تتعَـدَّدُ أَشْـكالُهَا عَـددَ الطَّوَائـفِ، يُقْصَـدُ
حِفـظُ النِّظـامِ بهَـا وَصَـونُ الـدارِ
فـإذا اصْـطفى مـا شـاءَ مـن وَجَـرَى علـى المَرْعِـى مـن
أعْرَاضِـهَا أغَراضِـهَا
أصْـلا، فـأيُّ مَعـرَّة وَخَسَـارِ؟
قـالوا أتـى.. نُكْـراً وَنكْـرٌ قَـوْلُهُمْ، لـولا تَـبَجُّحُهُمْ ولـولا طَوْلُهَـا
مـا خَيَّمـتْ رِيَـب علـى أطهَـارِ
دَفَـعَ ادعـاءهُمُ وأبْطَـلَ زعْمَهُـمْ زمـن طـوى تحـت الغبـاوة ظُلْمَهُـمْ
وأمَـاطَ سـتْرَ الزُّهـد عـن تُجَّـارِ

***

يَـا طِفْـلُ قَلِّـبْ طَرْفـكَ المُتـرَدِّدَا، أوَ مَـا تَـرَى شَـبَحاً عبُوسـاً أسْـودا
مُتَجسِّسـاً لـكَ مـن وراء سـتارِ؟
هـذا أسـاءَ إليـكَ قبـلَ المَوْلـدِ وَجنَـى عَليْـكَ جنَايَـةَ المُتَعمِّـدِ

وقوله:

فنـــــذرتم لله بطنـــــاً مشـــــبعاً ويـــداً إذا مُـــدتْ فَكيمـــا تجَمعَـــا

وعقيرة ((للشـــــــــــــــــــــــجب))والإنذارِ

وزهـــدتم فـــي غيـــر مـــا ترضـــونه ورغبـــتم عـــن كـــل مـــا تأبونـــه

إلا علـــــــى قـــــــدرٍ مـــــــن الإظهـــــــارِ

وقَســـمتمُ ديـــنَ المســـيح مـــذاهباً تســـتكثرون مراتبـــاً ومناصِـــباً

فأُضـــــــيع بـــــــين تَشَـــــــتُّتِ الأفكـــــــارِ

وَمَضـــيتُمُ فـــي الغَـــيِّ حتـــى نِلْـــتم فِـــي بعـــضِ وهْمِكـــمُ الجَنـــينَ

وَقلـــــــــــــــــــــــــــــتمُ

هَـــــــذَا الْبَـــــــرئُ رَهِينـــــــةٌ للعَـــــــارِ

فلـــئِنْ يكـــنْ فـــي الخَلْـــقِ خَلْـــقٌ فَالطِّفـــلُ تِمْثَـــالُ العفـــافِ الظَّـــاهرُ

طَـــــــــــــــــــــــــاهِرُ

القصيدة طويلة في نحو سبعة وستين مُثلثاً، على البحر الكامل، وبضمير المُخاطب، لِتعظيم المخاطب وتَمجيده، فَيسرد القصة في هيئة لوحات شطريّة مُختلفة القوافي إلاّ في أشطرها الأخيرة، والقصيدة فيها كثير من الصور التَشْبيهية التي أضفتْ الشاعرية على جوّ القصيدة ذات الطابع النثري، ويَصفُها الناقد جمال الدين الرمادي بأنها من أروع قصصه الشعرية التي تَنبع من عاطفته الإنسانية، فقد كان إنساناً بأدق معاني هذه الكلمة، وكانت النزعة الإنسانية مُتفشّية في شعره، وكان في حياته الخاصة يقول: "من ذا الذي يَتألم ولا أستطيع أن أمدَّ له يدي..." حتى قيل أن حياته بالنهار كانت قصيدة من الشعر إلا أنها قصيدة عملية، لأنه ينجز وعده في النهار بالعطف على أولئك الذين ذَكرَهم في شعره

بالليل، فانقضى العصر الذي كان فيه الشاعر يَتَوخى من أجل الفن، وأصبح اليوم يَتَوخى الفن من أجل الحياة[20].

أما موضوع قصيدة القروي فيدور حول مُدَّعِي الدينِ(الزائف)، الذين يَتَخذون من الدين قناعاً لهم ليصلوا به إلى مُبتغاهم، بأسلوب رمزي بسيط في قصيدة (الدُّب المترهب). فالقصة تَحكي أن دُبّاً أراد السيادة، فَعجزَ عن أن يكون أسداً، فاستشار دباً حكيماً عن السبيل التي يَصل بها إلى الشهرة، فأشار عليه بأن يَترهب، ويُنادي بين الناس بالإيمان، وأن يدعو إلى الطهارة والحُبِّ، ومضى الدُّب المُدَّعي التقوى إلى أبعد من ذلك حين أذاعَ في الناس أنه نبيٌّ جديد، ولكن طبيعة الشرِّ الكامنة فيه لم يَخفِهَا التدجيل الذي قام به، فصار به الحال أنه أصبح أحقرَ من دبٍّ، فأمسى من نفاقهِ له ألف مذهب، فيصور القروي هذا النفاق بأن هذا الدبّ أصبح كل يوم يدعي شيئاً جديداً ويُرى بقناع آخر، فنجدهُ تارةً ذئباً، وتارةً خروفاً، وفي أغلب الأحيان نراه ثعلباً، يقول فيها[21]:

حَلَـــم الـــدبُّ بالســـيادةِ يومـــاً واشـــتهى أن يكـــون ليثـــاً أغلَـــبْ

غيـــر أنَّ الزئيـــرَ أعيـــاهُ فارتـــدَّ مغيظـــاً يبـــرِّدُ الغـــيظَ بالسَّـــبُ

ومضـــى يستشـــيرُ دبّـــاً حكيمـــاً طالمـــا جـــرَّبَ الـــذي هـــو جـــرَّبْ

قـــال إنَّ الخمـــولَ يـــا صـــاحِ صـــعبٌ بيـــد أنَّ الـــذي أُحـــاولُ أصـــعبْ

فأفِـــدني كيـــف الســـبيل الـــى الشـــه رةِ قـــالَ الســـبيل أن تترهـــب

وتنـــادي فـــي النـــاسِ آمنـــتُ بـــاسهِ وتـــدعو الـــى الطهـــارةِ والحُـــبّ

هاتفـــاً أيهـــا النيـــام اســـتفيقوا أيهـــا الخـــاطئون توبـــوا الـــى الـــربّ

هكـــذا يُـــدرك الحكـــيمُ الأَمـــاني راكبـــاً للخلـــود أنعـــمَ مركـــبْ

والـــذي لا يكـــون ليثـــاً خطيـــراً فلـــيكن فـــي الأَقـــلِّ دبّـــاً مهـــذَّبْ!

ومضـــــى دُبُنـــــا التقـــــيٌّ مـــــذيعاً نبـــأ كاذبـــاً ببـــوقٍ أكـــذبْ

زاعمـــــاً أنـــــه نبـــــيٌّ جديـــــدٌ يـــا لـــهُ مُرسَـــلاً بنـــابٍ ومخلـــبْ

رامَ باســـم التـــدجيلِ أن يغلـــب الـــش رَّ ولكـــن طبيعـــة الشـــر أغلـــبْ

فـــانتهى الأمـــرُ أنـــه فـــي الضـــواري كـــان دبّـــاً فصـــار أحقـــرَ مـــن دُبْ

لـــم يُطـــق صـــحبةَ الليـــوثِ فأمســـى ذاهبـــاً فـــي نفاقـــه ألـــف مـــذهبْ

القصيدة قصيرة نسبياً في خمسة عشر بيتاً، على البحر الخفيف، وترمز في مضمونها إلى التضليل والخداع الذي يقوم به بعض البشر مُتخذين في سبيل ذلك الدين كغطاء لهم، كالترهب الكاذب.

وله قصيدة جميلة في هذا الباب تدور حول الرؤية الدونية للإنسان غير المتعلم، والتكبّر عليه، في قصيدة(الأُمي)، وتَدَور حول فلاح راح يَتأمل جمال صنع الله وإبداعه، فَوصفها بشعرٍ جميل، فمرَّ به فتىً مُتخرج في إحدى الجامعات، وسَأله إن كان قد تَعلم الهجاء، ولم يلتفت إلى الشاعر، وجميل صنعه من الشعر الذي قاله، فلما أجابه بالنفي والتمني والتحسرّ للعلم والقراءة، ردَّ الفتى عليه بقوله: يا مسكين أفنيت عمرك بالجهل[22].

المبحث الرابع: قصص الشجاعة والتضحية والإيثار

وهذا النوع من القصص وَرَد في قصائد الخليل، فله قصص جميلة في باب الشجاعة والتضحية، ومن أجملها قصيدة "شهيد المروءة وشهيدة الغرام" وقصيدة أخرى بعنوان "الكشاف"، أو "شهيد المروءة"، تَدور أحداث القصة الأولى عن قصة واقعيَّة غريبة حَدثَتْ في إحدى قرى الشام، وبطل القصة فتى يافع اِسمه "أديب".

تروي أحداث القصيدة القصصية ما يأتي: ذات يوم يَهجم ذئب على القرية التي كان أهلها قد حاصروه أمام سور خلفه هضاب شامخة، وكانت عيناه تقدحان بالشرر، فاِنبرى إليه الناس غير أنهم عَجزوا عن النيل منه، فاِنطلق من الجَمْع هذا الفتى(أديب) ومَشى إليه

كالأسد الرئبال، ودَخل معه في صراع عَنيف والناس بجوارهما في فَزَع شديد قد انعقدتْ ألسنتهم وانحبَسَتْ أنفَاسهمْ، فارتفع في الأُفق عواءٌ شديدٌ، ثم أخذَ العواء يَخفتْ صوته شيئاً فشيئاً، ونَظرَ الناس فاذا الذئب يَسقط صريعاً بين الجبال، وعاد البطل إلى القرية وقد خَلَصَها من شرِّ هذا الحيوان المفترس، لكنه كان مُتعباً مُتخضباً بدمِه، مُمزق الثياب، فبينما كان الناس يقومون بتهنئتهِ كان الأطفال يَحملون الذئب المَقتول ويَطوفون به في الأسواق، ثم يَرمونه في خندقٍ، فتَجتمع الكلاب عليه، وتَأكلُ منه فتُصاب بالداء، لينتَشر الوباء كذلك بين سكان البلدة كلها، حتى جَزعوا واحتَجبوا في بيوتهم، فَأُرسِلَ الجنود لقَتْل الكلاب المُوبوءة، وكان عرس أديب قد اِقترب، وبعد ذلك بَدأ الأهل يَستعدون للزفاف الذي لم يَبقْ لحلولهِ سوى يومين، وبينما هم يَحتفلون ويَتبادلون الهدايا جَرْياً على التقاليد اِشتكى أديب من اِرتفاع الحرارة العالية، وزادَ المرض عليه، فلما حَانتْ ليلة زفافه أضحى قطعة من اللهب، وصارَ يرغي وَينفجر غضباً، وتَشَنجتْ أعصابه واضطَرمتْ عيناه وأخذَ يُمزق الكساء ويُحطم الزجاج، ثم يمضي عُريَاناً لا يَهتدي إلى مكان وهو يَعوي عواءاً مزعجاً، وشاعَ في القرية أن أديباً مُصاب بداء الكَلب، وأنه في أيامِه الأخيرة وسَيموت قريباً، فعَزلوه في غرفةٍ مُنفردة وقيدوه، وكلما أتاه زائر كشَّر عن أنيابه وهمَّ بافتراسه، وأرسلوا لخطيبته لبيبة من يُعلمها الخبر، فأقبلتْ إليه مُرتعشة خائفة، فدخلت غرفته وكان في حالة سكون، فَسُرَّ برؤيتها، وظل مُبتسماً دون أن يَتكلم، ثم شَكا ثم زَفر ثم بَكى ثم نَفر، وعضَّها دون أن تُحاول الهرب لهَوّل الموقف، بل آثرت الموت، وظل يُؤلمها هكذا حتى وضَع يده في عُنقها يَبتغي خَنْقها، فَصَرختْ عند ذاك من الألم وانقطع صوتها فماتتْ بين يديه، وصَحا أديب من حالته وأدْرَك ما قد فَعل وما جَنَتهُ يداه، فأخذَ يَبكي ويَصيح ويُنْدبها وهَوَى بعدها إلى الأرض ومات، وهكذا شُيِّعَ الزوجان معاً، فكان مَوته فِداء الناس وكان مَوتها فداءهُ، وبهذا كان حقاً شهيد المروءة، وتكون هي شهيدة الغرام.

هذه هي قصيدة "شهيد المروءة وشهيدة الغرام" المأساة الإنسانية، التي بدأها الشاعر بوَصف الذئب وضَخامته، وكيف حَاصروه أمام السَّدّ، فَتبدأ عقدة الخوف منه، يقول[23]:

وَذَاكَ انَّ ذِيبَـــــــــــا مُسْتضْـــــخَماً مَهِيبَـــــا

طَرَقَهَـــــا أصِـــــيلَا يَبْغِـــى بِهَـــا مَقِـــيلَا

فَخَـــــرَجَ الرّجـــــالُ الَيْـــــهِ وَالأَطْفَـــــالُ

فِـــي هَـــرَجٍ وَمَـــرَجٍ وَلَجـــبٍ مُمْتَـــزِجِ

أَتَـــــاهُمُ الانْبَـــــاءُ مُبَاغِتـــــاً فَجَـــــاؤُوا

عُـــزُلاً بِـــلَا سِـــلَاحِ يُرْجَـــى سِـــوَى الصِّـــيَاحِ

وَوَقَفُـــــوا بَعِيـــــدَا يُنَفِّـــــرُون السِّـــــيدَا

وانتظمـــــوا هِـــــلَالَا لِيُقْفِلُـــــوا المَجَـــــالَا

فَـــــامْتَنَعَ الـــــدُّخُولُ عَلَيْـــــهِ وَالْقُفُـــــولُ

فَهْـــوَ أمـــامَ ســـورِ يمشـــى مـــنَ الحُضـــورِ

وَخلفَـــــهُ هِضـــــابُ شَـــــوَامِخٌ صِـــــعَابُ

وَلـــمْ يُحـــاولْ هَرَبَـــا مـــنْ حيـــثُ كـــانَ كَلِبَـــا

عَينـــــاهُ شُـــــعلتانِ يَـــــرْنَحُ كالسَـــــكْرانِ

مُنـــتقلاً عَلَـــى مَهَـــلْ كالظـــلِّ فـــي سَـــفْحِ الجبَـــلْ

وَبَيْنَمَـــــا الجْمهُـــــورُ حَيْـــــرَانُ مُسْـــــتَطيرُ

دَائـــــرَةٌ مُشْـــــتبكَهْ فِـــــي سَـــــكْنةٍ وَحركـــــه

كـــــالبحر ذي الهيـــــاج فـــــي مكســـــر الامْـــــواجِ

طـــورا وطـــورا جامـــد كالمـــاء وهـــو راكِـــدُ

ثم تَتَطور هذه العُقدة وتَتَنامى حين يُصوِّر لنا الصراع ما بين أديب والذئب، فتارةً يَلتقيان وأخرى يَفترقان، وتارة يَشتبكان وأخرى يَنفكّان، فَيُجسد مَشهد الصراع وذروة الحدث بينهما، وربط هذه الأحداث بوساطة أحرف العطف، ونهاية العقدة وانفراجها بانتصار أديب لتبدأ عُقدةً جديدة أصعب بانتشار الوباء بعد ذلك في القرية:

اذ انْبَـــــرى شُـــــجَاعُ تَرهبُـــــهُ، السِّـــــباعُ

كـــــان اســـــمهُ((اديبا)) وَبَأسُـــــهُ عَجِيبَـــــا

بَـــدَا مـــنَ الجمْهُـــورِ بمظْهـــرِ الأمِيـــرِ

وَســـارَ نَحـــوَ الـــذِّيبِ بِكبـــرٍ غَريـــبِ

يَمشـــى وَلا يُبَـــالِى كالأســـدِ الرِّئْبـــالِ

حَتـــى اذا مَـــا اقْتَربـــا مِنـــهُ عَـــوَى وَاضْـــطَرَبَا

وَنَبَّـــهَ الأصْـــداءَ فَـــامتلأتْ عُـــوَاءَ

ويتابع السرد بعدها ليُكمل أحداث قصته، ومنها قوله:

وعـادَ مـن سَـفْحِ الجبـلْ ((أديـــبُ))عودة البطـــلْ

حـــذاؤهُ مُشـــقَّقُ وثوبـــهُ مُمـــزقُ

وقـــالَ أجْهـــزتُ وَلا فَخـــرَ علـــى كَلْـــبِ الفَـــلَا

فَهنَّـــأوهُ فَرَحَـــا وَأمْطـــرُوهُ مِـــدَحَا

وبعد أن انتهتْ عُقدة الوباء وصَوَّر لنا السكون الذي دبَّ في القرية، يَعود بنا مرة أخرى إلى يوم الحادثة فَيرسم لنا صورة دقيقة لفتاة عذراء جميلة كانت بين الشهود، ألا وهي لبيبة خطيبة أديب، وقد حاولت أن تَجري وراءه فَمُنِعتْ واستُوقِفَتْ في الحال، وظلت مُضطربة مَشغولة البال حتى رأته عائداً، فَسُرتْ به وأقبَلَتْ عليه تُضمد جراحه:

كانـــتْ مـــنَ الشُّـــهودِ فـــى الموقـــفِ المشْـــهُودِ

يـــومَ هـــلاكِ الـــذِّيبِ علـــى يَـــدَىْ((أديبِ))

فَتيَّـــــةٌ عـــــذراءُ جميلـــــةٌ غـــــراءُ

طـــــاهرةُ الفـــــؤادِ عفيفـــــةُ الـــــودادِ

قوامهـــــا كالرنـــــدِ وَخـــــدُّهَا كـــــالوردِ

وعينُهَـــــا الزرقـــــاءُ تَحســـــدُهُا السَّـــــماءُ

كانـــتْ لـــه خطيبـــةْ يدعونَهَا((لبيبـــــــــةْ))

وبعد ذلك يعود الشاعر بالسرد مرةً أُخرى إلى ما بعد أيام الوباء، فَيَصِف لنا الاحتفال والإعداد للعرس، وبينما كان الفرح هو الطاغي على الأجواء يَستمر تَدَرُّج العُقَد نحو الأصعب، فإذا أديب يَشتكي ويَمرض:

اذ اشـــتكَى ((أديـــبُ)) حـــــرارةً تـــــذيبُ

وقـــــامَ بارتعـــــاشِ فـــــوراً الـــى الفـــراشِ

ويَمضي الشاعر في سرد بقية أحداث القصة وكيف تَطور مرضه، مُصوراً من خلال ذلك طريقة الدجالين في علاج هذا المرض، وما تَرتب على ذلك من يَأس الناس من شفائه ونفورهم منه:

فاسْتوصَـــفوا دجَّـــالا بطبِّـــه مُحْتَـــالَا

فَجـــسَّ نـــبضَ الســـاعدِ جـــسَّ الحكـــيمِ الرَّاشِـــدِ

وخـــطَّ رسْـــماً مُبهمـــا عَقربَـــهُ وَأعجَمَـــا

وجـــاءَهُ فـــى غَـــدِهِ بِبِـــدع لـــم تُجْـــدِهِ

وكـــرَّرَ العيـــادَه لـــهُ بِـــلا إفـــادَه

يُنقَـــدُ فـــوراً أجْـــرَهُ ثُـــم يُـــولى ظَهَـــرَهُ

والضـــعفُ فـــى ازديـــاد والـــداءُ فـــى اشـــتدادِ

وهـــوَ يقـــولُ لا مـــرضْ وإنمـــا هـــذا عَـــرَضْ

ويُصَور لنا في أبيات حال لبيبة واِستعدادها ليوم عرسها جاهلةً ما ألمَّ بزوجها أديب، منها قوله:

وأرقـــــت لبيبـــــه لا تعلـــم المصـــيبَه

تفكـــر فـــى اســـتكمال مظـــاهر الجَمـــال

وتقلـــق المرائـــى بكثـــرة الترائـــى

تـــأوى الـــى مرقـــدها مشـــغولة بِغـــدِهَا

حتـــى اذا مـــا ذكـــرت أمـــرا جديـــدا نَفـــرت

ثم يَنسجُ الشاعر لنا بعد ذلك صورة مُؤلمة عن الحال التي أضحى فيها أديب، وبسرعة يَنتقل إلى الجزء الأخير، وبصورة دقيقة يُعَبِّر عن المشهد المؤلم، ولاسيما حين يُصوِّر حالة أديب المُفجعة عندما يُدْرِك ما فعلَ، فَـيَستغيثُ ويُنادي خطيبته بحزنٍ بالغ، ويُنهي قصته باِستشهادهما، فَينقل الأحداث في شريطٍ مُتسارع:

وكـــانَ وهـــوَ ثـــائرُ اذا أتـــاهُ زائـــرُ

كَشَّـــرَ عـــن أضراســـهِ وَهَـــمَّ بافْتراسِـــهِ

وأرْسَـــلُوا مَـــنْ أخبـــرا ((لبيبـــةً)) بمـــا جَـــرَى

فأقبَلَـــتْ مُنْكَمشَـــه مَـــذعورةً مُرتَعشَـــه

وَدَخَلـــتْ مُجترئَـــه غُرفَتـــهُ مختبئـــهْ

وكـــان فـــى ســـكون مـــن ثـــورة الجنـــون

مســـــــــتغرب القيـــــــــود يعبـــــــــث بالحديـــــــــدِ

فابتســـــــــمتْ تكلفـــــــــا وهـــــــى تمـــــــوت كلفـــــــا

فَهَـــــشَّ مســـــــرورا بهـــــا وَبَـــــشَّ حـــــينَ قُرْبِهَـــــا

كالأَســـــــــدِ المـــــــــريضِ مُلقـــــىً علـــــى الْحَضـــــيضِ

عَادَتْـــــــــهُ بـــــــــالْعَرِينِ إِحْـــــدَى الظِّبـــــاءِ الْعِـــــينِ

سَـــــــــارِحَةً حِيالَـــــــــهْ مَارحَـــــــــةً مُحْتَالَـــــــــه

وَهْـــــوَ اليْهَـــــا رَانِـــــى يَفْتُّـــــــــر كالجَـــــــــذْلانِ

ظَـــــلَّ قَلـــــيلاً يَبْسِـــــمْ يُصْـــــــــغِى ولا يُكلِّـــــــمُ

ثُـــــمَّ شَـــــكَا ثُـــــمَّ زَفَـــــرْ ثُـــــمَّ بَكَـــــى ثُـــــمَّ نَفَـــــرْ

وَعَضَّـــــهَا فـــــى صَـــــدْرِهَا ورأسِـــــــــها وَنَحْرِهَـــــــا

فَلـــــمْ تُحـــــاوِلِ الهَـــــرَبْ مِـــــنْ هَـــــوْلِ ذلـــــكَ الغضـــــبْ

وَعَرضَّـــــــــتْ حَيَاتهَـــــــا مُـــــــــؤثِرَةً مَمَاتَهَـــــــا

فَظـــــلَّ فِـــــى إيلامِهَـــــا وهـــــىَ علـــــى اسْتِسْـــــلامِهَا

حَتَّـــــى تَـــــوَلَّى عُنْقَهَـــــا بالْيَـــــدِ يَبْغِـــــى خَنْقَهَـــــا

فَاسْتصْـــــرَخَتْ مـــــنَ الوَجَـــــعْ وَبعْـــــدهَا الصَّـــــوْتُ انْقَطَـــــع

فَأَبْصَـــــــــرُوهَا هَامِـــــــــدة بَـــــــيْنَ يَدَيْـــــــهِ بـــــــارِدَه

ثُـــــمَّ صَـــــحَا وأَدْرَكَـــــا مَـــــا قَـــــدْ جَنَـــــاهُ فبَكَـــــى

وَصـــــــاحَ يـــــــا للنـــــــآسِ لِحسْـــــــــــرتِى وَيَاسِـــــــــى !

ويَـــــــا لَهَـــــــذَا العْـــــــارِ مَـــــنْ مُحْرِقِـــــى بِالنـــــآرِ ؟!

يَـــــا قُـــــرَّةَ النَّواضِـــــرِ وَبَهْجَـــــــــة الخَـــــــــواطِرِ

لا تَسْـــــــــتطيرى جَزَعَـــــــــا إنّـــــــــى آتٍ مُسْـــــــــرِعَا
أليَـــــــوْمَ يـــــــومُ عُرْسِـــــــنا والمُلتَقَـــــــى فـــــــى رَمْسِـــــــنَا
ثُـــــــمَّ هَـــــــوَى مُعفَّـــــــرَا وَمَـــــــاتَ مَوتـــــــاً مُنْكَـــــــرَا
فَشُـــــــــيِّعَ الزَّوجَـــــــــانِ فـــــــى شَـــــــكْلِ مهْرجـــــــانِ

القصيدة طويلة في مئة وسبعة وثمانين بيتاً، وعلى بحر مجزوء الرجز، وفيها الإيقاع قصير سريع في كل بيت، فالرجز أسهل البحور الشعريّة نظراً لكثرة التغييرات المألوفة في أجزائه، والتَنَوُّع الذي يَنتْاب أعاريضه وضروبه، ويُستعمل كثيراً في الارتجال والقول على البديهة[24]، وقد قَصَّ مطران هذه القصة على البَداهة، ونُشِرَتْ بَعدها في مجلة "أنيس الجليس"، بدليل ابيات مُقدمة القصيدة التي قال فيها أنه لم يُحدِد بَعد بأي أسلوب يَكتُبها بالشعر أو بالنثر بقوله:

سَـــــيـــدَّتِـــى إنْ تُـــفْسِـــحِـــى لِـــى بِـــالـــكَـــلَامِ فَـــاسْـــمَـــحِـــى
أَقْصُـــــــصْ عَـــــلَـــــى قُـــــرَّاءِ نَشْـــــــرَتِـــــكِ الْـــــغَـــــرَّاءِ
بِـــالـــنَّـــثْـــرِ أَوْ بِـــالشِّـــعـــرِ أَيُّـــهـــمَـــا لا أَدْرِى

سردها الخليل بأسلوب مُشَوّق مُمتِع، وكان رَسْمَه لصور القصة وكأنها قد جُسِدَتْ أمامنا حيث جَعلنا نَعيش في أجواء القصة بأجواء الفَرح فيها وبنهايتها الحزينة، وحَشَدَّ أحرف العطف في بدايات أبياتها ليَخلُق تَماسُكاً مُوضوعياً قصصياً.

وبالروح القصصية نفسها يروي لنا الخليل قِصة شهيد مروءة آخر في قصيدة "الكشاف"[25]، فهي تَدور على امرأة فقيرة رَثّة الثياب وكان ابنها يَلعب بالقرب منها، فَجَذَبتْه أصوات هدير الماء التي أثارتْ فضوله، فَسَقط أثناء ذلك في النيل، وفُجِعتْ المرأة ورَكَضتْ لِتُنقِذَه، لكنها

لم تَستَطعْ، فاِستغاثتْ الناس، فجاءَ فتى يافع شُجاع وأراد أن يُقِرَّ عينها برجوع وَلدِها، لكن شَجَاعته هذه كَلفَته التَضحية بِنفسه، وذَهبَ شهيداً للمروءة، ويروي لنا الشاعر القصةِ بوصف جَميلٍ مُتَسلسلٍ، وكلتا القصتينْ واقعيتان عَايشهما الخليل، مِثلما ذَكر في تَقديمه لهما.

أما القروي فَكانتْ قِصة الشجاعة التي قَدَمَها تَتَحدث عن فتاةٍ عربية في مجتمعٍ غير مُتَحَفِظ وهي ربيبة العِفَّة والأخلاق، والقصة واقعيّة أيضاً، فَيحكي لنا القروي قصة "البشراوية الحسناء" التي اِعتَنقتْ الشعار المشرقي (النار قبل العار)، وهي فتاة عربية هَاجرتْ مع أهلها، لِطلب والدها العُلى، ولازمتْ التَمَسُكْ بالعِفَّة والغيرة والاِنتقام للشَرفْ حين تَعَرَّض لها وهي بين شقيقتها وأُمها في (الريو دي جنيرو) بعض رذالة شباب الغرب، فما كان منها إلا أن ثَارتْ حَميتَها المَشرقية بتَلقينهم درساً أشبعَتهمْ فيه لَكماً فَرَقَهمْ عنها، وأثبتَتْ فيه عِزة وإباء الدماء العربية الأصيلة التي تَجري في عروقها، وقد بَدأها الشاعر بمُقدمة حَيّا فيها الفتاة، قائلاً[26]:

سـلمت يمينـك يـا ابنـة الأحـرارِ يـا بنـتَ لبنـانَ العزيـزِ الجـارِ
يـا زهـرةً قـد فتَّحـت أَكمامهـا بجـوار أَرزِ الـرب خيـرِ جـوارِ
رفعـت (بِشَـرِّي) رأسَـها بـك عـزةً حـقُّ السـماءِ التَّيـهُ بالأقمـارِ
والأرزُ مـدَّ إلـى العـلا أغصـانَه وزهـا عَلـى الجنـاتِ بالأثمـارِ
هجـرَ الـبلادَ أبـوكِ فـي طلـبِ العلـى والحـرُّ ميَّـالٌ إلـى الأسـفارِ
فنشـأتِ فـي مدنيـةٍ غربيـةٍ كالـدرةِ البيضـاءِ فـي الأقـذارِ

ثم يَسرد القروي بقية القصة قائلاً:

لمـــا خرجـــتِ إلـــى المدينـــةِ مـــرةً تقضـــين فيهـــا أشـــرفَ الأوطـــارِ
بهـــرَت تلاميـــذَ المـــدارسِ أوجـــه ســـجدَ الربيـــعُ لهـــنَّ فـــي آذارِ
فتقـــدم الأغـــرارُ منـــك تصـــبباً ومصـــابُ هـــذا العصـــرِ بـــالأغرار
قـــالوا : مـــن اللائـــي فـــتنَّ عيونَنـــا يطلعـــنَ كالأقمـــارِ فـــي الإبـــدارِ؟
نحـــن البـــدورُ نعـــم ! أجبـــتِ وإنمـــا مـــا أنـــتَ أول واهـــم يـــا ســـاري
أو مـــن عـــذارى الشـــرقِ رمـــتَ وشـــعارُهنَّ : النـــارُ قبـــل العـــارِ
تبـــــــــــــــــــــــــــــذلاً
طمعـــوا بحســـنك إذ رأَوه جنـــةً فـــأرتهمُ يمنـــاك طعـــمَ النـــارِ
علمـــتِهم درســـاً جديـــداً ذكـــره يبقـــى لهـــم مـــثلاً مـــدى الأدهـــارِ
والله قبلَـــكِ مـــا رأيـــت غزالـــةً إنســـيةً فتكـــت بـــوحشٍ ضـــار
لكنهـــا عـــاداتُ قومـــكِ فـــي الـــورى عـــاداتُ كـــل مجـــرب جبَّـــارِ
حســـناؤهم تحمـــي الحمـــى يُرجـــى لـــدحرِ العســـكرِ الجـــرَّارِ
وصـــــــــــــــــــــــبيُّهم

القصيدة كما يَظهر من نَصِّها مُتوسطة الطول، إذ جاءت في سبعة عشر بيتاً، وعلى البحر الكامل، فهذا البحر أقرب إلى الشِدَّة منه إلى الرِقَّة، فَيمتاز بجرس واضح مُتولد من كثرة حركاته المُتلاحقة[27]، سَرد لنا الشاعر هذه القصة لِهَدف اجتماعي أخلاقي في الفخر لمن هي مثال للمرأة العربية الشرقية المُحافظة على ما تَرَبتْ عليه، سَرَدها بضمير المُخاطب، لتَعظيمْ المُخاطب وتَمجيده، فهو يُحاور هذه الفتاة الشُجاعة ليؤكد لها أنها محلُّ فخرٍ واِعتزاز عند كل عربي، وأسلوب الراوي المُخاطب أسلوب قديم في الشعر العربي. وللقروي قصة أُخرى يَبدو من مَلامحها أنها حَقيقية مُلخصها يَدور على التضحية في الحبِّ

من أجل الصداقة، فيَقع الشاعر أسيراً بين شِباك مَحبوبته وودِّ صديقه، لكنه آثر ودَّ الصديق، وبطل القصة هو الشاعر نفسه مثلما يُخبرنا، عندما تَعلَق قلبه بحبِّ اِمرأة عربية النسب برازيلية المَوطن، ويَبدأ بوصف الحسناء فَيُقدِّم صورة لامرأة لا مَفَرَّ لِاحدٍ من سِحرِها والتَولعْ بها، وجمال صوتِها في الإنشاد، فتَستمر هي في بَوْحهَا بتَعلقها به، لكنه يَصُدُّ كل باب تَفتَحه للحبِّ على الرغم من مُحاولاتها كلِّها، لأنها زوجةٌ لصاحبه، يروي الشاعر ذلك كلَّه في قصيدة "بين الصداقة والحب"[28].

المبحث الخامس: قصص **السخرية**

وفي هذا الباب الطريف يُقدِّم لنا الخليل قصة هي مأساة وفاجِعة، لكنها في الوقت نفسه قصة ساخرة! والسُخرية هنا هي سخرية القدرّ من البشر، إذ يروي لنا قصة "فاجعة في هزل" ، ويَذكر أنها قصة حقيقية تَدور على شباب من قَرية من قُرى لبنان، اجتَمعوا للمُنادَمة في دار أحدهم، فَسَمعوا بِجِوارهم حَفلة نِسْوَة وغِناء، فأرادوا أن يَتَحايلوا عليهِنَّ ويَفوزوا بصحبَتهْنَ، فاقترح أحدهم أن يُعلِن على الملأ مَوته، فَتَمَاوت وانتَحَبْ الباقون، وهَرَعتْ النسوة إلى المكان وطَفقْنَ يَبكيْنَ الحيَّ المَيتْ، فَأعلَن البقية حيلتهم لهُنَ، فَضَحكْنَ ثم حَفَفْنَ حول سريره يُعاتبْنَه وينهرْنَه، لكن بلا جَدوى، فكانت المُفاجأة أن ذهب الراقد لنومته الأبدية، وهكذا تَحول فَرحهْنَ إلى مناحة، وسرورهم إلى بُكاء، وتَحولتْ الدُعابة إلى حقيقة مُؤلمة مرة، يقول الشاعر في مَطلعها[29]:

كَـــانوا ثَمَانِيـــةً مـــن النُّـــدَمَاء مُتَـــآلفِينَ كَأحْسَـــنِ الرفقـــاءِ

فِـــي مَجْلـــسٍ حَجَـــبَ الشَّـــبَابُ أبْوَابَـــهُ إلاَّ علـــى السَّـــرَّاءِ

بِـــــــــــــــــــــــأمْرِهِمْ

متحـــدثين ولا يطيـــبُ لمـــثلهمْ إلاَّ حـــديثُ الحُسْـــنِ والحســـناءِ

حَتَّـــى إذا اعْتَكَـــرَ الظَّـــلامُ وَمُزِّقَـــتْ أَحْشَـــاؤُهُ فـــدمينَ بالأضـــواءِ

وَتَثَّاقلَـــتْ أشْـــبَاحُهُمْ وَتَخَفَّفَـــتْ أرْوَاحُهـــمْ مـــن نشـــوةِ الصَّـــهْبَاءِ

أصْـــغَوْا لقـــولِ فَتـــىً جَـــرِيءٍ مِـــنهُمُ غَـــضِّ الشَّـــبيبةِ جَـــامِحِ الأهْـــوَاءِ

يـــا أيُهَـــا الإخْـــوَانُ أسْـــمَعُ نِسْـــوةً بِجِوارِنَـــا فـــي حَفْلَـــةٍ وَغِنَـــاءِ

فَهَلـــمَّ نَحْتَـــلْ حِيلَـــةً فَيَجِئْنَنَـــا، لا خَيْـــرَ فـــي أُنـــسٍ بِغَيْـــرِ نِسَـــاءِ

قَـــالُوا: فمـــا هـــي، قـــال: أرقـــد أنَّـــي قَضَـــيْتُ مُعَـــاجَلاً بقَضَـــاءِ مُوهِمـــــــــــــــــــــاً

فـــاذا انْتَحَبـــتُمْ جئْـــنَكُمْ، فَبَـــرزْتُ كَفَنـــي وَفُزْنَـــا باجْتِمـــاعِ صَـــفَاءِ مِـــــــــــــــــــــنْ

ويستكمل الشاعر سرد بقية القصة قائلاً:

فَنَعَـــاهُ نَـــاعٍ رَاعَهُـــنَّ فَجِـــئْنَ فِـــي هَـــرَجٍ لِتَوْدِيـــعِ الفَقِيـــدِ النَّـــائِي

وَبَكَيْنَـــه حَتَّـــى إذا أدركْـــنَ مـــا كَـــادوا لَهُـــنَّ، وَثـــبْنَ وَثْـــبَ ظِبَـــاءِ

يَضـــحكْنَ أشْـــبَاهَ الشُّـــمُوسِ عَقِـــبَ الحَيَـــا وَضـــاءَةَ الـــلالاءِ تَألقَـــــــــــــــــــــتْ

وَحَفلْـــنَ حـــولَ ســـريرِهِ يَنْهرنَـــهُ لكِـــنْ أحَطْـــنَ بِصـــخرةٍ صـــمَّاءِ

فَـــرَفعْنَ عَنـــهُ غَطـــاءَهُ فَوَجدْنَـــهُ بالميـــت أشـــبه منـــه بالأحيـــاءِ

عَالَجْنَـــهُ جُهْـــدَ العِـــلاجِ وَلَـــمْ يَكُـــنْ شـــئٌ لِيُوقِظَـــهُ مـــنَ الإغْمَـــاءِ

حَتَّـــــى إذَا دُعِـــــيَ الطَّبِيـــــبُ رَاعَ القُلُـــوبَ بنَفْـــيِ كُـــلَّ رَجَـــاءِ فَجَـــــــــــــــــــــاءَ هُمْ

فَتَبـــدَّلتْ أفْـــراحُهُمْ فـــي لحظـــةٍ بمناحـــــةٍ، وسُـــــرُورُهُمْ بِبُكَـــــاءِ

وَأَبَـــاتَهُمْ هَـــذَا المِـــزَاحُ مِـــنَ الـــرَّدَى فِـــي شَـــرِّ مـــا يُبْكِـــي مـــن الأَرْزَاءِ

لـــوْ عَـــاشَ صَـــاحِبُهُمْ لَعَـــاشَ مِـــنْ بَعْـــدِهَا للهجْعَـــةِ الســـوْدَاءِ

رَهِينَـــــــــــــــــــــــــــــــــــــــةً

وَكَـــذا الحَقِيقَـــةُ جـــدها ومزاحهـــا ســـيان فـــي الإشْـــقَاءِ وَالإفْنَـــاءِ

القصيدة كما ظَهر من نصِّها مُتوسطة الطول في واحد وعشرين بيتاً، على البحر الكامل، وعلى القافية الهَمزية، بَدأها بوصف حالة الشباب ومرَحهم ثم رَغبتهم في مشاركة النساء لتَجمعهم، فَتبدأ العُقدة حينَ يدّعي أحدهم أنه قد مات، لتَصِل العُقدة لذروتِها عند تحول اللعبة إلى حقيقة، أراد مطران من خلالها الإخبار أن لا فرار من الموت، وقد يَأتي مُباغتةً في لحظات لم تكن بالحسبان.

أما القروي فله قصتان طريفتان في هذا الباب، هما: "الفقير"، و"المتفرجنات الثلاث"، تَتَحدث القصيدة الأولى عن سخرية القروي من الفقير، لكن صورته هنا على غير المألوف، فلا تُثير فينا العَطّف والرحمة عليه، بل تُثير فينا الاِشمئزاز والنفور منه؛ لأنه ليس الفقير الحقيقي، بل مُدعي الفقر الذي يَستغل رأفة الناس بادعاء الجوع والعَوز، ويَأخذ الأموال ليُنفقها على ما هو مَرفوض دينياً أو اجتماعياً، يبدأها بالمشهد الأول بمجيء الفقير إلى القروي ليلاً وهو يشكو آهات الزمان ويطلب المساعدة، فلهُ ثلاثة أطفال ناموا جياعاً، فأعطاه القروي القليل من المال، فسالَت دمعة الفقير الشاكي لهذا العطاء، فهي كجمرة تحرق أحشاء الشاعر، ومضى الفقير، وأمضى الشاعر يَلوم نفسه وُيعاتبها على قلة العطاء، وينتقل بنا إلى مشهد آخر حين نَسي الشاعر فقره وركض وراء الفقير يَبحث عنه خَجِلاً منه ومن نفسه ليزيد عطاءه وإحسانه له، فينقلنا إلى مشهدٍ جديد أخير فيه المُفاجأة الساخرة غير المُتوقعة،

حين يَجد الشاعرُ الفقيرَ حزيناً وكأن الحزن يُغطي وجهه بسواده، في قاعة القمار! حيث جَرَّب الرجل حَظّه وضاعت دراهمه خسارة في القاعة الخضراء، فَيلعن هذا الفقير مساء الشاعر الذي أعطاه هذه الدراهم فلم تَجلب له الحظ! يقول فيها[30]:

جـــاءَ الفقيـــرُ الـــيَّ ذاتَ عَشـــيَّة يشـــكو الزمـــانَ كســـائِرِ الفقـــراءِ

قـــالَ: المـــروءةَ! لـــي ثلاثـــة أكبُـــدٍ نـــــاموا علـــــى قـــــدْرِ الحصـــــى والمـــــــــــــــــــــــــاءِ...

فنفحتـــــهُ شـــــيئاً فســـــالت جمـــــرةٌ مـــن عينـــه وَقَعَـت علـى أحشـائي

وَمَضـــى فبكتّنـــي ضـــميري قـــائلاً أقلَلـــتَ. بـــئسَ عَواطـــف الشـــعراءِ

وَذُهلـــت عـــن فقـــري وطِـــرْت خجِـــلاً أُحـــاول أَن أَزيـــدَ عَطـــائي وراءَهُ

ولكـــم فقيـــرٍ يـــا لمُيَّـــة بـــائسٍ خفَّفـــتُ بعـــض شـــقائه بشـــقائي

فوجدتُـــه والحـــزن يكســـو وجهَـــهُ بســـوادِهِ فـــي القاعـــةِ الخضـــراءِ

شـــاءَ المُعَثَّـــر أن يجـــرّب حظـــهُ بـــدريهماتِ أخيـــه فـــي البأْســـاءِ

حتـــى اذا خســـر الـــذي أَعطيتـــهُ لعشـــائِهِ لَعَـــنَ الفقيـــرُ مَســـائي...

والقصة قصيرة في تسعة أبيات، على البحر الكامل، وعلى القافية الهمزية، تُقدِّم مشهداً إنسانياً ساخراً لكنه واقعي.

أما قصيدته "المتفرجنات الثلاث"[31] فتسرد قصة الشاعر مع أخواتٍ ثلاث، ويعتمد كثيراً على عنصر الحوار في بنائها، فينقل لنا وصف الغادات الثلاث، ووصف مكان اجتماعهن، ثم يَنقل ما دارَ من حوار مع كل واحدة منهن، بدءاً من الكُبرى ثم الوسطى ثم الصُغرى، وبعد هذا الحوار يُوقف تَطور الأحداث، فيعلن نَدمه وأسفهُ وضَياعه وضياع فنهِ بينهُنَ، لأنهُنَ متفرجنات لا يطربْنَ لغناءِ عربيٍ حتى لو غناه أعظم مُغنٍ في التاريخ العربي

وهو إبراهيم الموصلي، فَيتعمقْ بالسخرية منهْنَ ومن ذَوقهْنَ الذي يُفضِّل الرطانة على الأصالة، وأسلوب حوار القروي ووصفه للأخوات الثلاث يُشبه إلى حدٍّ ما أسلوب الشاعر عمر بن أبي ربيعة في رائيته الغزلية الشهيرة، فيُقسم الحدث إلى ثلاث حوارات، ويبدأ كل حوار منها بـ"قالت الكبرى/قالت الوسطى/قالت الصغرى)، كقول عمر بن أبي ربيعة[32]:

بَيْنَمـــــا يَـــــذْكُرْنَني أَبْصَـــــرْنَني دونَ قَيْـدِ الميـلِ يَعْـدو بـي الأَغَـرْ

(قالـــت الكبـــرى: أتعـــرفن الفتـــى؟ قالـــت الوســـطى: نعـــمْ هـــذا عمـــر)

(قالـــت الصـــغرى وقـــد تيمتهـــا: قـــد عرفنـــاهُ وهـــل يخفـــى القمـــر!

الخـــاتـــمـــة

الحمد لله الذي وسع برحمته كل شيء، والصلاة والسلام على نبيه الصادق الأمين، وعلى آله وصحبه الأطهار الطيبين، أما بعد:

فلكل عمل نهاية، ولكل رحلة غاية لا بُدَّ من الوقوف عليها، وها أنا وصلتُ إلى نهاية المطاف، ويمكن أن اوجز أهم ما توصلتْ إليه من نتائج :

1- غياب قصص اليتيم، على الرغم من كونها تُشكلْ جانباً مهماً في مجال القصص الشعري الاجتماعي، فكلا الشاعرين قد أهملاها ولم يكن لها حضور في قصصهم الشعرية.

2- يُلاحظ أن معظم قصص الشاعرين الاجتماعية، قصص واقعية حقيقية.

3- بالنسبة للأنواع: ففي مجال قصص الأُم تفوقٌ للقروي، إذ لم نَجدْ ملامح لقصة شعرية خليلية متناولة الأُم.

4- في قصص الفقر: يُسجَّل السَبْقُ للخليل بقصائد مُحكَمة البناء ذات حوادثٍ مُتسلسلة وتَتَنامى عُقدةً لتنْحَل، لتَظهَر عقدة أُخرى أكبر منها، في حين كانت بسيطةً عند القروي لا تَعقيد فيها ولا تَدرّج في الحَبكاتْ.

5- في قصص نَقد الأعراف الإجتماعية وبعض الطقوس الدينية: كلا الشاعرين قَدّما قصائدهما بنمطٍ واحد بسيط لا تَعقيد فيه.

6- عند الانتقال إلى قصص الفخر فقد قَدّم الشاعران قصص واقعية، عايشاها، لكن تَظهر براعة الخليل في هذا المجال أكثر، ولاسيما حين يَتَدَرَّج في تَسلسل أزمات القصة، والبراعة في نَقل الأوصاف والأحداث، فَتبدو كأنها تَحدثُ أمامنا، فيُمكننا مشاهدتها، أما قصص القروي فعلى الرغم من قيمتها الجمالية لكنه يُحاول إختصارها والإسهاب في الأوصاف على حساب الحادثة.

7- في جانب قصص السخرية بَرع كلاهما فيها، وجاءا بمشاهدٍ مُفاجئة لم نكنْ لنَتوقع حدوثها.

8- كانت النزعة المسيحية ماثلةً في شعر القروي بشكل واضح، وهو أكثر تأثّراً بالدين المسيحي من الخليل، وربما يكون سَبَبه حياة المَهاجر التي عاشها في ظل مُجتمعات

نَصرانية، أما الخليل الذي عاش في الوطن العربي في ظل دولةٍ إسلامية فقد حَملتْ قصائد ديوانه كثيراً من النزعاتْ الإسلامية، حتى في أسماء القصائد، أو بناء فكرة لقصيدة على حديث نبوي.

9- تَميزتْ مُعظم قصص خليل مطران بكون نهاياتها تَحمل جانباً مَأْسَاوِياً حزيناً، تَبعَّثُ الأسى والألم العميق في نفس المُتلقي، فتَغدو الحياة لديه سوداء ظالمة، بينما خَفتَتْ صور هذا الجانب المُظلم عند الشاعر القروي، وبَرز الجانب المُشرق في مُعظم قصصه التي تبَعَّثُ الحياة والفكاهة والمرح.

10- كانت القصة الشعرية لدى مطران مثالاً رائعاً للأسلوب القصصي، فقد كان للقصة في شعره حظ وافر، فهو بهذا النتاج الشعري القصصي الكثير يعدُّ من أوائل روادّها، على اختلاف أنواعها التي صورّها تصويراً بديعاً، فجددَ في بنائها، وبثَّ فيها الحياة والنماء، حتى غدَّت لديه فناً قائماً بذاته له أصول وقواعد، مُستَعيناً بثقافته التاريخية الواسعة وثقافته الأدبية الغربية، وعلاقاته الاجتماعية الواسعة في مُجتمعه، فقد كرَّس هموم الناس وأوجاعهم في قصصه الشعرية هادفاً فيها إلى العِظَة والاعتبار، ولم يكن القروي فيها أقل شأناً، فقد كَرَّسها للهدف نفسه داعياً فيها وبكل صراحة إلى الوقوف في وجه الظلم الاجتماعي والسياسي، ساعده في ذلك حياة الغربة التي عاشها، فكانت قصصه أكثر جرأة، تَتَضَمن التحريض للردّ بالقوة لا بالكلام بوجه الباطل، وكذلك كانت أكثر جرأة في طرح الموضوعات الفكرية والفلسفية والغزلية، وَوَصف مغامراته مع محبوباته، فظَهر الفرق واضحاً بين الشاعر المَشرقي والشاعر المَهجري في تأثُّرِهما بالمَحيط، ما بين البيئة العربية والبيئة الغربية في الجرأة باستعمال الالفاظ، والتَحرر من قيود المجتمع، خاصة في قصيدة الغزل، وفيما يَخص الخطاب مع الذات الالهية، لكنها من الجانب الفني ربما لم تَصِلْ إلى ما وصلتْ إليه قصص مطران.

ولا أقول وأنا أبلغ نهاية مطاف رحلتي أني وَفيتُ البحث حقه، لكنني بَذلتُ جهدي في البحث والاستقصاء والمراجعة.

وختاما أسأل الله التوفيق، وما الكمال إلا لله وحده...

المصادر

القرآن الكريم.

الكتب:

– إحياء علوم الدين، الإمام ابو حامد الغزالي الطوسي(ت450هـ)، دار الكتب العلمية، بيروت، 2016م.

– التذوق الأدبي، ماهر شعبان عبد الباري، دار الفكر، المملكة الأردنية الهاشمية، ط1، 1430هـ–2009م.

– خليل مطران باكورة التجديد في الشعر العربي الحديث، ميشال جحا، دار المسيرة، بيروت، ط1، 1401هـ–1981م.

– خليل مطران شاعر الأقطار العربية، جمال الدين الرمادي، دار المعارف، مصر، ط2، (د: ت).

– ديوان الخليل، دار مارون عبود، بيروت، ط3، (د. ت).

– ديوان الخليل، دار الهلال، مصر، ط2، 1949م.

_ ديوان عمر بن أبي ربيعة بن المغيرة بن عبد الله بن عمر بن مخزوم (23 هـ / 644م)–(711م / 93هـ)، تحقيق: أحمد أكرم الطباع، دار القلم، بيروت – لبنان، (د.ت)

– ديوان القروي، رشيد سليم الخوري، وزارة الأعلام– مديرية الثقافة العام، دار الحرية– مطبعة الجمهورية، ط3، 1973م.

– شعراء معاصرون، إسماعيل احمد أدهم، دار المعارف، القاهرة، 1984م.

– في الأدب و النقد، د. محمد مندور، نهضة مصر، القاهرة، (د. ت).

– في النقد والادب، ايليا الحاوي، دار الكتاب اللبناني، بيروت، ط2، 1986م.

– القصة الشعرية في العصر الحديث، د. عزيزة مريدن، دار الفكر، دمشق، 1984م.

– المعجم المفصل في علم العروض والقافية وفنون الشعر، د. اميل بديع، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 1411هـ– 1991م.

– معجم المصطلحات العربية في اللغة والأدب، مجدي وهبه، كامل المهندس، مكتبة لبنان، بيروت، ط2، 1984م.

المواقع الالكترونية:

– https://ar.wikisource.org/wik : الميلودراما.

الهوامش

(1) إحياء علوم الدين، الإمام ابو حامد الغزالي الطوسي(ت450هـ)، دار الكتب العلمية، بيروت، 2016م، ج3، 157.

(2) ينظر: التذوق الأدبي، د. ماهر شعبان عبد الباري، دار الفكر، المملكة الأردنية الهاشمية، ط1، 1430هـ-2009م. 24.

(3) ينظر: ديوان الخليل، دار مارون عبود، بيروت، ط3، (د. ت)، على سبيل المثال، ج2، 400. وينظر: ج3، 247.

(4) ديوان القروي، رشيد سليم الخوري، وزارة الأعلام- مديرية الثقافة العام، دار الحرية- مطبعة الجمهورية، ط3، 1973م.، 801_ 803.

(5) وهذا هو المُعتقد المسيحي الذي ردَّ عليه الله(ﷻ) في كتابه الكريم ((مَا المَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إلاَّ رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبلِهِ الرُّسُلُ وَأُمُّه صِدّيقةٌ كانا يَأْكُلانِ الطَّعَامَ انْظُرْ كَيْفَ نُبَيّنُ لَهُمُ الآيات ثُمَّ انْظُرْ أنَّى يُؤْفَكُونَ)) المائدة /75.

(6) ديوان الخليل، دار مارون عبود، ج2، 412_432.

(7) القصة الشعرية في العصر الحديث، د. عزيزة مريدن، دار الفكر، دمشق، 1984م، 442، 443.

(8) خليل مطران باكورة التجديد في الشعر العربي الحديث، ميشال جحا، دار المسيرة، بيروت، ط1، 1401هـ-1981م، 156.

(9) ينظر: شعراء معاصرون، إسماعيل احمد أدهم، دار المعارف، القاهرة، 1984م، ج2، 294.

(10) في الأدب والنقد، د. محمد مندور، نهضة مصر، القاهرة، 37 .

(11) والمقصود بها هي ذلك النوع من التمثيليات التي تَزخر بالحوادث المُثيرة وتَتَسم بالمُبالغة في كل شيء: https://ar.wikipedia.org/wik

(12) في النقد والادب، ايليا الحاوي، دار الكتاب اللبناني، بيروت، ط2، 1986م، ج5، 27.

(13) ديوان الخليل، دار مارون عبود، 466 _468.

(14) وهي تحكي قصة طفلة ثرية ذات حسب، وطفل وضيع فقير كان أجيراً للفتاة اتخذه أهلها لتَسليتها وإلهائها وتَشتد أواصر الصداقة والحب بينهما فلما كبرا يُفَرَّق بينهما، فيضرب الفتى في الأرض ليَجمع المال ليكون بمستوى الفتاة وترقب الفتاة عودته لكن أهلها يُكرهونها على الزواج من خطيبٍ ثري، ولم تلبث أن تعتل وتموت في ريعان الصِّبا، ويعود الفتى وأصاب ثراء وجاها عظيمين، وعند عودته يُصدم بخبر زواجها ووفاتها فيبكي فتاته ويَندبها وإذا بصوت يُناديه من خلف الزمن: أن اللقاء في الجنة حيث الخلاص من شرور البشر، ديوان الخليل، دار الهلال، مصر، ط2، 1949م، ج2، 61-67.

(15) والمونولوج المسرحي: كلمة مُطولة يُلقيها الممثل منفرداً على المسرح لا يشترط فيها أن تكون مناجاةً لنفسه، وقد يكون بجواره غيره من شخصيات المسرحية يُنصِتون إلى ما يُلقى: معجم المصطلحات العربية في اللُغة والأدب، مجدي وهبه، كامل المهندس، 398.

(16) ديوان القروي، 69-71.

(17) ينظر: المعجم المفصل في علم العروض والقافية وفنون الشعر، د. اميل بديع، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 1411هـ- 1991م، 81.

(18) يذكر الشاعر في ديوانه: أن الفتى لما تزوج على مذهب غير المذهب الذي ولِد عليه شقَّ ذلك على رئيس المذهب الذي اِنتقل منه الشاب وبحث عن وسيلة للاِنتقام فوجد نقصاً في الصيغة التي تَمَّ عقد ذلك الزواج عليها، ديوان الخليل، دار مارون عبود، ج2، 181.

(19) ديوان الخليل، دار مارون عبود، ج2، 181 -189.

(20) خليل مطران شاعر الأقطار العربية، جمال الدين الرمادي، دار المعارف، مصر، ط2، (د: ت).، 74، 78.

(21) ديوان القروي، 446، 447.

(22) ينظر: المصدر نفسه، 854.

(23) ديوان الخليل، مطبعة دار الهلال، ج1، 82 -93.

(24) ينظر: المعجم المفصل في علم العروض والقافية وفنون الشعر، د. اميل بديع، 87.

(25) ينظر: ديوان الخليل، دار مارون عبود، ج1، 192-197.

(26) ديوان القروي، 187، 188.

(27) ينظر: المعجم المفصل في علم العروض والقافية وفنون الشعر، د. اميل بديع، 114.

(28) ينظر: ديوان القروي، 261 -265.

(29) ديوان الخليل، دار مارون عبود، ج1، 78، 79.

(30) ديوان القروي، 860.

(31) ينظر: ديوان القروي، 281-284.

(32) ديوان عمر بن أبي ربيعة بن المغيرة بن عبد الله بن عمر بن مخزوم (23 هـ / 644م) (711م / 93هـ)، تحقيق: أحمد أكرم الطباع، دار القلم، بيروت – لبنان، المكتبة الحُمَيْدِيَّة، (د: ت)، 90.